صفحة حب

إميل زولا



روايات الهلال

روائع القصص العالمي



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكر الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر يناير 2020 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

روايات الهلال

REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

سكرتير التحرير
رمزي سعد

الإشراف الفني
سميحة حسنين

العدد ١٥٨ * فبراير ١٩٦٢ رمضان ١٣٨١

No. 158 — FEVRIER 1962

بيانات ادارية

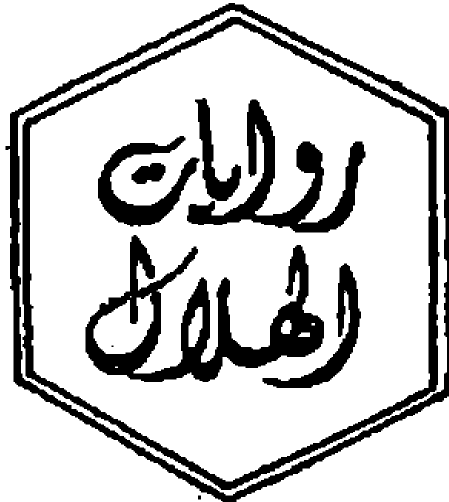
ثمن العدد : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ٨٠ مليما ــ عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ولبنان ١٠٠ قرش سورى لبناني ــ فى الاردن والعراق ١٠٠ فلس .

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ٨٥ قرشا صاغا ــ فى سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا لبنانيا ــ فى بلاد اتحاد البريد العربى بالبريد البحرى ١١٠ قروش صاغ و (بالطائرة) ١٥٨ قرشا صاغا ــ فى الامريكتين ٥ دولارات ــ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٥١ شلنا .

والاشتراكات تسدد لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية ــ وفى الخارج بتحويل مصرفى على أحد بنوك القاهرة .

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ــ القاهرة
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)





مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

صفحة حب

بقلم

إميل زولا

الجزء الأول

مؤلف الرواية

ولد اميل زولا فى باريس سنة ١٨٤٠ لأب مهندس ايطالى الأصل ، بارع الفن ، عاثر الحظ ، قليل المال ، وولد بأنف أفطس ، وملامح بعيدة عن الجمال .. ولسان ناقص لايحسن نطق الزاى ، فكان الصبيان فى المدرسة يتندرون عليه بسؤاله عن اسمه فيقول «تولا» وعندئذ يضجون بالضحك !.. ويجرى هو خلفهم ليضربهم ، فيضربونه ضربا مبرحا !

ومات أبوه وهو طفل ، فاضطرت أمه الشجاعة أن تحترف غسل الثياب ، والخدمة فى البيوت ، لتعوله وتيسر له الدراسة .. بيد أنه كان تلميذا متخلفا ، مشغوفا بتأليف الشعر ، فازدانت شهادته بأكثر من صفر ، منها صفر رنان فى مادة الأدب الفرنسى بالذات ، لأنه كان يهمل النصوص المقررة ، وينكب على قراءة الكتب الخارجية من مؤلفات معبوديه « هيجو » و « الفريد دى موسيه » ومن اليهما

ولم يكن هناك مناص من ان يهجر مقاعد الدرس ، ليبحث عن عمل .. فعطف عليه بعض ذوى المروءة وعينوه كاتب حسابات فى بعض المحلات الكبرى .. فكان يقضى النهار وبعض الليل فى عد الأرقام ليقبض مرتبا يقتات منه وأمه قوت الكفاف .. بيد ان روحه الشاعرة ضاقت بذلك العمل ، فتحدى الجوع فى باريس ، تاركا هذا العمل البغيض .. الى ان قيض الله من توسط له عند صاحب احدى المكتبات الكبرى فعينه بائعا .. فكان ابلد الباعة فى البيع ، وأمهرهم فى اختلاس النظر الى باطن الكتب ، ثم يكتب تعليقات ولقدا سريعا لها فى دفتر مذكراته .. الى ان ضبطه صاحب الدار ، وكاد يفصله لولا أنه وجد فى تلك التعليقات براعة أدبية وألمعية ، فرقاه محررا للاعلانات

وفى هذه الوظيفة وجد الطريق إلى معبوده : القلم .. ولو لكتابة الاعلانات عن الكتب . ولكنها كتابة على كل حال ، وعن الكتب بالذات .. فاشرقت نفسه بالأمل ، وصار يجالس رب العمل ، ويدبج قصصا قصارا ، نشرها فيما بعد باسم « أقصوصات الى نينون » .. فكانت الخطوة الأولى نحو المجد السابغ ، الذى تألقت فيه درره اللوامع : « الوحش الآدمى » و « البيت المتداعى » و « نانا » التى ترجمناها باسم « غانية باريس » عام ١٩٥٥ و « تريزا » التى ترجمناها عام ١٩٦١ . وهذه الرواية « صفحة حب » التى يسر سلسلة روايات الهلال أن تقدمها لقرائها ف جزئين ، وعلى شهرين متتاليين .. وروايات اخرى كثيرة

واميل زولا مشهور عنه بانه كان لايعرف فى الدنيا غير لذتين : الكتابة ، والأكل !. فكان يخرج مع زوجته كل يوم الى السوق لينتقى الطيور بنفسه ، ويشتريها بعد أن يتأكد من انها سمينة ! ثم يهتم بالأصناف التى يجب أن تقدم له ، ويأكل منها بافراط !

وفى شهر أكتوبر سنة ١٩٠٢ ، أشعل مدفأته وجلس الى مكتبه وتناول قلمه ليسهر الليل فى تدبيج المقالات والقصص .. فوجدوه فى الصباح مختنقا بغاز المدفأة .. وقد أحرقت جثته ، ورمادها موجود الآن فى مقبرة العظماء بالحى اللاتينى بباريس



شخصيات الرواية

هيلين او مدام جرانجان Hélène	سيدة جميلة شابة تعيش مع ابنتها فى باريس بعد وفاة زوجها
جان Jeanne	ابنة هيلين ، صبية صغيرة مريضة
الدكتور هنرى ديبرل Henri Deberle	طبيب متزوج يسكن بمنزله بالقرب من هيلين تقع هيلين فى غرامه
جولييت Julliette	زوجة الدكتور ديبرل .
لوسيان	صبى صغير ، ابن الدكتور ديبرل
بولين Pauline	فتاة فى مقتبل العمر ، شقيقة جولييت
القسيس جوف L'abbé Jouve	صديق لهيلين وقسيس الحى الذى تسكن فيه
السيد رامبو M. Rambaud	شقيق القس جوف. يتردد معه على بيت هيلين
ماليينيون Malignon	شاب وسيم ، من أصدقاء أسرة الدكتور ديبرل المقربين
الام فيتو La Mère Fétu	امرأة عجوز فقيرة تعطف عليها هيلين
الدكتور بودان Bodin	طبيب عجوز يشرف على علاج جان ابنة هيلين
روزالى Rosalie	فتاة شابة ، خادمة هيلين
الجندى سيفران Zéphyrin	جندى قروى شاب يمت بصلة القربى لروزالى ، ويقضى مدة خدمته العسكرية فى باريس

الفصل الأول

أزمة جان

كان المصباح الصغير الموضوع فوق المدفأة خلف احد الكتب يرسل ضوءا هادئا باهت الزرقة ، يكسب مرآة الصوان الموضوع بين النافذتين والمصنوع من الخشب الاصفر الثمين ، وكذلك قطع الاثاث والسجادة والورق الملون الذى يغطى جدران الغرفة .. كان يكسب كل ذلك زرقة سماوية خفيفة.. تبدو فى هذه الساعة المتاخرة من الليل وكانها غيوم صغيرة . وكان السرير المفروش بالقطيفة ، والذى يقع فى مواجهة النافذة فى الناحية التى تغمرها الظلال ، يكون كتلة داكنة سوداء لا يكاد يرى المرء منها سوى ملاءاته ذات اللون الابيض الشاحب ..

وفى وسط هذا السكون ، دقت ساعة الحائط الواحدة ، وكانت هيلين .. الارملة الشابة ذات الشعر الكستنائى متمددة فوق سريرها ورأسها مائل على الوسادة كما لو كانت قد استغرقت فى النوم .. وهى تنصت الى شيء ما ..

استغرقت هيلين في نوم هادئ لذيذ حتى دقت الساعة النصف بعد الواحدة ، وكان السكون لايزال يلف المكان بصمت عميق، ولكن ما ان اعلنت الساعة الثانية ، حتى عكر صفو هذا الهدوء صوت آنات واهنة انبعثت من غرفة أخرى مجاورة ، وسرعان ما خيم الصمت من جديد .. فاستأنفت نومها الهادئ اللذيذ

وفجأة ، استيقظت هيلين على صوت طفل يئن ، فجلست على سريرها وقد وضعت يديها على صدغيها وهى لا تزال تغالب النعاس، وما لبثت ان قفزت من فراشها حين تناهى الى سمعها صياح مكتوم وهى تقول :

ـ جان .. جان ! ماذا بك يا عزيزتي ؟

ولما لم تسمع هيلين اجابة ، صاحت تنادي من جديد :

ـ جان .. ماذا بك يا ابنتي ؟ اجيبيني !

ولم يأتها أي رد ، فهرولت تحمل المصباح الصغير ، وهي تمتم بصوت مرتفع : « يا الهي ! انها كانت متعبة ، وكان من واجبي الا استسلم للنوم »

واسرعت هيلين تدخل الغرفة المجاورة ، وقد استولى عليها قلق بالغ ، فوجدت الغرفة غارقة في صمت رهيب .. وكان المصباح الصغير الذي تحمله لا يكاد يرسل من الضوء الا بقعة مستديرة الى السقف

ولم تستطيع هيلين ، في باديء الامر وهي تميل براسها على سرير صغير مصنوع من الحديد أن تميز شيئا ، غير أنها ما لبثت أن لمحت وسط السرير ابنتها جان وقد تصلب جسدها وجمدت عضلات رقبتها ووجهها ، وكانت عيناها مفتوحتين ومثبتتين على ستائر الغرفة ، وراسها ممدودة الى الوراء في عنف

وصاحت هيلين تقول : يا الهي ! يا الهي ..! ان ابنتي تعاني سكرات الموت ! »



ووضعت هيلين المصباح الصغير جانبا ، ثم اخذت تتحسس جسد ابنتها بيدين مرتعدتين ، فبدا لها أن قلبها قد كف عن الخفقان ، وحينئذ استولى عليها ذعر شديد ، فتمتمت تقول في ذهول : «ان ابنتي تموت ! النجدة !.. ابنتي ! ابنتي ! »

وعادت هيلين الى غرفتها وهي ترتطم بقطع الاثاث .. واخذت تدور حول نفسها دون أن تدري ماذا تفعل أو أين تذهب ، ثم عادت الى غرفة ابنتها وانحنت مرة اخرى على السرير ، وهي تنادي طيلة الوقت طالبة النجدة .. ثم اخذت جان بين ذراعيها ، وراحت تقبل شعرها وتتحسس جسدها ..وتتوسل اليها أن ترد ولو بكلمة واحدة.

وقالت هيلين في نفسها : « ترى اين تشعر بالالم ؟ .. اتراها ترغب في شيء من الشراب الساخن الذي تناولته منذ وقت قريب ؟ .. هل يمكن أن ينعشها الهواء البارد فيجعلها تتحرك ؟ » . وكانت تصر على أن تسمع ابنتها تتكلم ، فراحت تقول لها وهي تهزها هزا :

« أخبريني ماذا بك يا جان .. آه ! قولي شيئاً بالله عليك يامريزتي!»

ولم تدر هيلين ماذا تفعل في هذه الساعة المتأخرة من الليل . كانت أفكارها مضطربة .. ولا تزال تتحدث الى ابنتها فتسالها .. وفي نفس الوقت تجيب بدلا عنها ! .. وحاولت بمجهود كبير أن تسيطر على أفكارها ، ولكن احساسها بابنتها متصلبة بين ذراعيها كان يفقدها كل صوابها ، وكانت الطفلة تتلوى في سريرها دون أن تتنفس ، وحاولت والدتها ان تقاوم حاجتها الى الصياح ، ولكن صيحة عنيفة أفلتت منها فجاة على الرغم منها ..

وعبرت هيلين غرفة الطعام الى المطبخ ، وهي تنادي قائلة :

روزالي !

روزالي ! احضري طبيبا بسرعة ! ان ابنتي تموت !

وانبعث من الغرفة الصغيرة التي تنام فيها الخادم خلف المطبخ ، بعض الصيحات .. ولكن هيلين لم تنتظر وعادت تجري الى غرفة ابنتها ، وهي تحدث نفسها بأن هذه الخادم يمكن أن تترك ابنتهـا تموت !.. وكانت هيلين حافية القدمين ترتدي قميص النوم دون ان يبدو عليها انها تشعر بالبرد القارس في هذه الليلة من شهر فبراير

ولم تكد تنقضي دقيقة واحدة حتى ذهبت مرة ثانية الى المطبخ وهي لا تكف عن الصياح ، ثم عادت الى غرفتها وارتدت « جونلتها » على عجل والقت بشالها على كتفيها .. وكانت اثناء ذلك ترتطم بقطع الاثاث فتوقعها على الارض . وأخيرا انتعلت صندلا مكشوفا وتركت أبواب شقتها مفتوحة .. ونزلت الطوابق الثلاثة .. لتحضر طبيبا . وسرعان ما وجدت نفسها خارج المنزل ، وهي تحس بطنين في أذنيها وشرود في افكارها ...

توجهت هيلين الى شارع فينوز ، ودقت جرس الدكتور بودان الذي سبق له أن عالج جان .. وبعد مدة طويلة جاءت الخادم لتفتح الباب ، واخبرت هيلين بأن الطبيب الى جوار سيدة في حالة وضع . فوقفت هيلين على افريز الشارع كالبلهاء ، اذ كانت لا تعرف طبيبا آخر في حي باسي ، ثم اخذت تذرع الشوارع بضع دقائق ، وهي تنظر الى المنازل في ذهول . وكان الهواء القارس يلفح وجهها ، وهي

تمشي بصندلها على الجليد الخفيف الذى تساقط اثناء الليل . كانت ترى أمامها منظر ابنتها المتصلبة وتدوى فى راسها هـــذه الفكرة البشعة .. بأنها سوف تقتلها ان لم تجد طبيبا فى الحال . وبينما كانت تصعد من جديد إلى شارع فينوز تعلقت بجرس أحد المنازل وقد خطر لها ان تسأل أصحابه عما اذا كانوا يعرفون طبيبا ..

واخذت هيلين تدق الجرس فى لهفة ، بينما راح الهواء يلصق جونلتها الخفيفة بساقيها .. ويجعل خصلات شعرهاتتطاير . وأخيرا فتح خادم الباب واخبرها بأن الدكتور ديبرل نائم ! يا للصدفة ! انها لم تكن تعرف انها قد قرعت جرس أحد الاطبـــاء ، وغمرها احساس بأن السماء لم تتخل عنها ، فدفعت الخادم بيدها ودخلت على الفور وهى تردد قائلة :

ــ ابنتي .. ابنتي تموت ! قل له أن يحضر ..

وصعدت هيلين الى الطابق الأعلى وهى تدفع الخادم وترد على اعتراضاته بأن ابنتها تموت ، حتى وصلت الى احـــدى الغرف ، وحينئذ قبلت أن تنتظر ، ولكنها ما ان سمعت الطبيب ينهض من فراشه حتى اقتربت من الباب وقالت تتحدث من خلفه :

ــ أتوسل اليك ان تسرع يا سيدى ، فان ابنتي تموت ..

وحينما ظهر الطبيب وهو يرتدى ســـترته بغير رباط عنق .. جذبته من يده ولم تدعه يتم ارتداء ثيابه . وتعرف الدكتور ديبرل على هيلين ، فقد كانت تسكن منزله المجاور الذى يؤجره لها ، ولمـا اشار عليها بأن يعبرا الحديقة ليختصرا الطريق ويمران من خلال الباب الذى يصل بين المنزلين ، استيقظت ذاكرتها فجاة فتمتمت تقول :

ــ هذا صحيح .. انني كنت أعرف أنك طبيب ، ولكنني نسيت هذا فى غمرة اضطرابى .. انظر لقد اصبحت كالمجنونة .. اتوسل اليك أن تسرع يا سيدى ..

وحينما صعدا الى الشقة ، وجدا روزالى قد اشعلت المصباح الكبير .. فتناوله الطبيب وقربه فى لهفة من وجه الطفلة التى كانت لا تزال على حالتها المؤلمة من التصلب

ولمدة دقيقة لم يفه الطبيب بكلمة واحدة ، وكان يضـــغط على

شفتيه بأسنانه .. بينما راحت هيلين تنظر اليه في قلق بالغ .
وحينما التقت عيناه بعيني الام المتوسلتين .. تمتم يقول :
ــ لا داعي للقلق .. ولكن لا يجب ان نتركها هنا ، فهي في حاجة الى الهواء ..

واحست هيلين بأنها تكاد تقبل يدي الطبيب على عبارته الطبية ، وشعرت بالراحة تتسلل الى نفسها .. وبحركة قوية حملت ابنتها على كتفها ، ولكنها ما كادت تضعها في فراشها الكبير حتى اضطرب جسم الفتاة المسكينة واخذ يتلوى في عنف . وذهب الطبيب ليفتح نافذة الغرفة بعض الشيء ، وامر روزالي بأن تشد السرير بعيدا عن الستائر ، واستحوذ القلق من جديد على هيلين فأخذت تتمتم قائلة :
ــ انها تموت يا سيدي ! أنظر .. أنظر .. انني لم اعهد أمرا فيها !

ولم يجب الطبيب عليها ، وراح يتابع الازمة العنيفة التي انتابت المريضة المسكينة بعين يقظة ، واخيرا قال :
ــ امسكي بيديها ... هيا على مهل وبغير عنف ... لا تقلقي ، فالازمة يجب أن تأخذ مجراها ..

كان الاثنان يميلان على فراش المريضة ، وهما يمسكان بجسمها الممدد الذي كان ينتفض انتفاضات مفاجئة ، وكان الطبيب قد اقفل ازرار سترته كي يخفي رقبته العارية في حين كانت هيلين ملتفة بشالها ، ولكن جان اطاحت بشال والدتها .. وفكت ايضا سترة الطبيب بحركاتها المتشنجة ، ولم يلاحظا ذلك لانصرافهما التام الى تتبع حركات المريضة



وهدأت حدة الازمة ، وبدت على الطفلة الصغيرة امارات ضعف كبير .. وطمأن الطبيب الام على نتيجة الازمة ، ومع ذلك ظل يرقب المريضة ، وانتهى به الامر أن قال موجها لهيلين بعض الاسئلة المقتضبة :
ــ ما عمر الطفلة ؟
ــ احدى عشرة سنة ونصف يا سيدي
وساد الصمت بينهما لحظة قصيرة ، انحنى الطبيب أثناءها على

المريضـــة .. ورفع جفنها المغلق باصبعه ..ونظر الى طرف أنفها ، ثم استأنف أسئلته قائلا دون أن يرفع بصره نحو هيلين :

ــ وهل حدثت لهـــا تشنجات مماثلة في صغرها ؟

ــ نعم يا سيدى ، ولكنها اختفت وهي فى السـادسة من عمرها .. انها طفلة رقيقة وضعيفة للغاية ، وأحيانا تبدو وكانها غائبة من كل شيء ..

ــ وهل اصيب أحد من أفراد عائلتك بمرض عصبي ؟

ــ لست ادرى .. ولكن والدتي ماتت بمرض الصدر

كانت هيلين تجيب على أسئلة الطبيب فى شيء من الخجل ، ولم تعترف له بان احدى جداتها ظلت محجوزة فى مستشفى الامراض العقلية ، وان كثيرا من أسلافها أصيبوا بأمراض عصبية

وفجاة قال الطبيب محذرا فى اهتمام :

ــ احترسى .. فها هى ذى ازمة جديدة

وفتحت جان عينيها لحظة ، ثم نظرت حولها فى شرود دون أن تنطق بكلمة واحدة . وثبتت الصبية نظرها فى نقطة معينة من سقف الغرفة ثم شدت جسـدها الى الخلف .. وسرعان ماتصلب جسـمها من جديد ، وتغير لونها .. فبعد أن كان ورديا .. أصبح شاحبا .. ثم تحـول الى اصفر باهت ، وعادت اليها التشـنجات مرة أخرى ..

وعندئذ قال الطبيب :

ــ استمرى فى امساك يدها الأخرى

وهرع الى منضدة كان قد وضع عليها بعض العقاقير عند دخوله ، ثم عاد يحمل زجاجة فتحها ووضـعها تحت أنف الصـبية فانتفضت انتفاضة شديدة .. كما لو ان احـدا هوى عليها بضربة سـوط هائلة ، حتى أنهـا افلتت من يدى والدتها ، وصاحت هيلين قائلة بعد أن ميزت الرائحة :

ــ كلا .. لا تستعمل الأثير ، انه يفقدها صوابها

واستمرت الصبية تنتفض من قمة راسها حتى اخمص قدميها .. وتنثني على نفسـها ثم تهوى فى عنف على حافة السرير ، وكانت قبضتاها مغلقتين بشدة واصبعها الخنصر مائلة نحو راحـة اليد ،

وكانت احيانا تفتح يديها وتبدو وكأنها تحاول أن تمسك بأشياء فى الفضاء .. وحينما صادفت يدها شال والدتها تعلقت به !

وكان ما يعذب الأم ـ على حد قولها ـ أنها لم تعد تتعرف على ابنتها ، فقد كانت ملامح وجهها متغيرة تماما ، وعيناها زائغتين يشوب بياضهما زرقة شديدة ، وكانت الصبية المسكينة فى حالتها الطبيعية تبدو كالملاك بوجهها اللطيف ... وتمتمت الأم تقول للطبيب :

ـ اتوسل اليك ، افعل أى شيء يا سيدى .. ان قواى تخور..

وتذكرت هيلين أن ابنة احدى جاراتها فى مدينة مارسيليا ماتت مختنقة بسبب أزمة مماثلة ، وخطر ببالها ان الطبيب ربما كان يخدعها كي يخفف منها .. وجعلها هذا تعتقد انها تتلقى فى وجهها آخر نفس لعزيزتها جان التى كان تنفسها يتوقف فى بعض الاحيان. وانخرطت الام أخيرا فى البكاء وقد أرهقها الالم والقلق والرعب والشفقة على ابنتها ، وأخذت دموعها تتساقط على جسم الصبية البريء العارى الذى لفظ كل الاغطية .. ومع ذلك ظل الطبيب يدلك أسفل الرقبة ويضغط عليها ضغطا خفيفا بأصابعه الطويلة النشطة

وأخيرا خفت حدة الازمة ، وظلت جان جامدة بلا حراك لحظة من الوقت .. ثم هوت فى وسط السرير وقد تمدد جسدها فى استرخاء واستند رأسها على الوسادة . وانحنت عليها هيلين وطبعت على جبينها قبلة طويلة ، ثم قالت تحدث الطبيب بصوت خافت :

ـ هل انتهت الازمة ؟ هل تعتقد أن هناك ازمات اخرى ؟

وقام الطبيب بحركة تدل على التهرب .. ثم اجابها قائلا :

ـ على اية حال ستكون الازمات الاخرى اقل عنفا

وكان الطبيب قد طلب من روزالى ان تحضر كوبا فارغا ودورقا صغيرا مملوءا بالماء ، فملأ الكوب بالماء حتي منتصفه واضاف اليه بضع نقط من دواء موضوع فى زجاجة جديدة . وبمعاونة هيلين التي رفعت له رأس الصبية ، أدخل بين أسنانها المقفلة ملعقة صغيرة من هذا الدواء

كان المصباح الكبير يغمر الغرفة بضــوئه الابيض .. فيكشف بذلك من فوضى هذه الغرفة التي قلب أثاثها راســا على عقب . وكانت ثياب هيلين التى ألقت بها على أحد المقاعد الكبيرة قبل نومها قد انزلقت على الأرض ، وأصبحت تعــوق السير على السجادة ، وذات مرة ، وطأ الطبيب قطعة من ثيابها الداخلية فالتقطها حتى لا يعود الى ذلك مرة اخرى . وذهب الطبيب بنفســه ليحضر طبقا عميقا من الصاج ، وبعد أن غمس فيه قطعة من القمــاش وضعها على صدغى الصبية

وقالت روزالى ، وهى ترتعد :

ــ سيدتى .. انك ستصابين بالبرد ، فهل أغلق لك النافذة ؟ ان الهواء عنيف أكثر من اللازم ..

فصاحت هيلين قائلة :

ــ كلا ، كلا .. اتركيها مفتوحة .. أليس كذلك يا سـيدى ؟

كان الهواء يدخل من النافذة على دفعات صغيرة فيرفع الستائر، ولكن هيلين لم تكن تحس به على الرغم من ان شالها سقط تماما عن كتفيها . وكانت بعض خصلات من شعرها قد افلتت فتدلت حتى أسفل ظهرها ، أما ذراعاها فكانتا عاريتين .. اذ أنها كانت قد شمرت عن ساعديها حتى لا يعوقاها عن العمل .. انها نسيت كل شىء حولها ، ولم يعد يملأ نفسها غير عاطفتها نحو ابنتها ، وكان الطبيب بدوره مشغولا فلم يعد يفكر في سترته المفتوحة وقميصه الذى انتزعت جان ياقته اثناء النوبة . وقال الطبيب :

ــ ارفعيها قليلا .. كلا ، ليس هكذا .. اعطنى يدك

واخذ يد هيلين ووضعها بنفســه تحت رأس الصبية التى كان يريد ان يعطيها ملعقة صغيرة أخــرى من الدواء ، وجعل الطبيب هيلين تقف الى جواره ، فقد كان يعاملها كمســاعدة له ، وكانت تطيعه طاعة عميــاء ، خاصــة وأنها كانت ترى ابنتها تبدو اكثــر هدوءا . وقال الطبيب لهيلين :

ــ اقتربى .. اريد منك أن تسندى رأسـها على كتفك لأننى اريد ان اسمع دقات قلبها

ونفــذت هيلين ما أمرها به الطبيب ، وحينئذ مال على جــان

ووضع اذنه على صدرها . ولمست وجنته كتف هيلين العارية ، وهو ينحنى على الصبية .. وحينما نهض ، تقابلت انفاسه مع أنفاس هيلين ، وقال فى هدوء :

ـ ان قلبها على ما يرام .. دعيها تتمدد من جديد ، فلا يجب أن نطلبها أكثر من ذلك ..

وما كاد يتم عبارته حتى أنتابت الصبية ازمة جديدة ، ولكنها كانت اقل خطورة بكثير من سابقتيها ، وتفوهت جان ببضع كلمات متقطعة .. ثم مرت بازمتين اخريتين قصيرتين ، واخيرا هوت الطفلة فى انهيار عميق يبدو انه اثار قلق الطبيب ، فقد غطاها حتى أسفل ذقنها وجعلها تنام ورأسها مرفوع الى اعلى . وظل الطبيب واقفا فى مكانه يسهر عليها نحو ساعة .. منتظرا ان يعود اليها تنفسها الطبيعى ، بينما كانت هيلين فى الناحية الاخرى من السرير تنتظر بدورها دون أن تتحرك أو تتكلم

ورويدا رويدا ، بدات امارات الهدوء تبدو على الصبية .. وأخذ وجهها البيضاوى المستطيل بعض الشىء يعود الى شكله الطبيعى ، وتشيع فى قسماته الرقة والجاذبية .. مع أن عينيها الجميلتين كانتا مغلقتين ، وبدات تتنفس من انفها الرقيق تنفسا خفيفا ، فى حين كان فمها الواسع بعض الشىء يتبسم ابتسامة غامضة . اما رأسها فكان مسندا على شعرها ذى اللون الاسود الفاحم كالمروحة

وقال الطبيب بصوت خافت :

ـ لقد انتهت الازمة هذه المرة

واستدار ليرتب زجاجات الدواء استعدادا للرحيل ، فاقتربت منه هيلين وتمتمت تقول فى توسل :

ـ آه ! ، لا تتركنى يا سيدى ، انتظر عدة دقائق اخرى فربما تعتريها ازمة جديدة .. انك انت الذى انقذتها

واخبرها الطبيب انه لم يعد هناك ما يخشى منه .. ومع ذلك فقد مكث رغبة منه فى أن يطمئنها ، وكانت هيلين قد ارسلت روزالى كى تنام

ولم تكد تمر عدة دقائق حتى ظهر ضوء النهار ، فذهب الطبيب

ليغلق النافذة .. ثم عاد ، وهو يقول بصوت خافت للغاية :
ــ اؤكد لك انه ليست هناك اية خطورة عليها .. وكل ماهنالك، انها يلزمها عناية كبيرة فى مثل هذه السن . وعليك أنت ، بصفة خاصة ، أن تجعلى حياتها سعيدة، وبعيدة عن الهزات
وقالت هيلين بعد لحظة من الصمت ..
ــ انها رقيقة جدا وعصبية للغاية ، ولا يمكننى ان أسيطر عليها دائما ، وهى تحزن لاتفه الاسباب .. وهذا امر يثير قلقى عليها لان فرحها او حزنها عنيف على الدوام .. انها تحبنى وتغار على كثيرا لدرجة انها تبكى اذا رأتنى اداعب طفلا آخر
فهز الطبيب راسه ، وهو يقول :
ــ نعم .. نعم .. انها رقيقة وعصبية وغيورة .. انه الدكتور بودان الذى يعالجها .. اليس كذلك ؟ اننى سأتحدث معه بشأنها وسنتفق على علاج حاسم ، فهى فى السن التى تتقرر فيها صحة المرأة
واحست هيلين نحوه بشعور من العرفان بالجميل ، حينما رأته مخلصا على هذا النحو .. وقالت :
ــ آه ! كم اشكرك يا سيدى على ما تكبدته من تعب
ولما لاحظت انها رفعت صوتها ، انحنت فوق السرير خوفا من ان تكون قد ايقظت جان .. ولكن الصبية كانت مستغرقة فى النوم، وابتسامتها الغامضة ما زالت ترتسم على شفتيها
واستطردت هيلين تقول بصوت منخفض :
ــ كان والدها كثير المرض ، اما انا فصحتى دائما جيدة
ونظر اليها الطبيب لاول مرة ، فلم يستطع ان يمنع نفسه من الابتسام ، اذ وجدها تتمتع بجسم سليم وصحة جيدة، وابتسمت هيلين بدورها ابتسامة تنم عن الطيبة والهدوء ، فقد كانت صحتها الجيدة تسبب لها السرور
وظل الطبيب ينظر اليها ، اذ لم يكن قد راى قط فى حياته جمالا وصحة بمثل هذه الروعة .. كانت هيلين طويلة القامة ذات شعر كستنائى له بريق ذهبى ، وحينما كانت تدير رأسها ببطء كان منظرها الجانبى يأخذ طابعا جادا نقيا كتمثال منحوت ، وكانت

عيناها الرماديتان واسنانها الناصعة البياض تضيء وجهها كله .. أما ذقنها المستديرة المحددة ، فكانت تكسبها طابعا ثابتا متزنا

غير ان ما اثار دهشة الطبيب بصفة خاصة ، هي هذه الأجزاء البديعة العارية من جسم هذه الأم ، فقد كانت عارية الذراعين والكتفين والرقبة .. وكانت ضفيرة ضخمة في لون الذهب الاسمر تتدلى على كتفها وتختفي بين ثدييها

وكانت تحتفظ ، على الرغم من شعرها المبعثر وجونلتها التي عقدت باهمال ، بطابع من السمو والشرف والحياء . وكانت تحس بشيء من الخجل تحت وقع نظرات هذا الرجل الذي كان يداخل نفسه شعورا كبيرا بالاضطراب

وتفحصته هيلين بدورها لحظة .. كان الدكتور ديبرل رجلا في الخامسة والثلاثين من عمره ، حليق اللحية مستطيل الوجه بعض الشيء ، وكان رقيق الشفتين تتميز عيناه بنظرة دقيقة

كان الاثنان يجلسان وجها لوجه .. كل في ناحية من السرير ، ولاحظت هيلين بدورها أن رقبته عارية ، وحينئذ جذبت شالها بحركة بطيئة ووضعته حول كتفيها ورقبتها ، بينما أخذ الدكتور ديبرل يصلح ياقته

وتمتمت الصبية وهي تفتح عينيها :

ــ أماه ! أماه !

واستولى القلق على الصبية حين وقع بصرها على الطبيب ، فاتجهت الى والدتها متسائلة :

ــ من هو يا أماه ؟ من هو ؟

وقبلتها والدتها ، وهي تقول :

ــ نامي يا عزيزتي ، لقد كنت متعبة بعض الشيء .. انه صديق ..

كانت الدهشة تطل من عيني جان ، وكانت لا تذكر شيئا مما حدث لها .. وغلبها النوم من جديد ، فتمتمت تقول في رقة ، وهي تستسلم له :

ــ آه ! انني نائمة .. طاب مساؤك يا أمي الصغيرة ... اذا كان

هذا صديقك فهو صديقي أيضا ...



ونهض الطبيب من مكانه ، وحيا هيلين في صمت ، ثم انسحب عائدا الى منزله .. وانصتت هيلين لحظة الى تنفس ابنتهما ، ثم جلست على حافة السرير حيث نسيت نفسها. وقد بدت عليها أمارات الشرود .. في حين أخذ ضوء المصباح الذي ترك مشتعلا يشحب في ضوء النهار



الفصل الثانى

فى منزل الطبيب

وفى اليوم التالى ، فكرت هيلين أن من اللائق أن تذهب لتشكر الدكتور ديبرل .. فان الطريقة المفاجئة التى ارغمته بها على أن يأتى معها .. والليلة التى امضاها الى جوار جان .. كل ذلك كان يسبب لها نوعا من الحرج أمام خدمته التى بدت لها أكثر من زيارة طبيب عادية . ومع ذلك فقد ترددت مدة يومين ، وهى تشعر بنوع من الخجل وتستنكف أن تقوم بذلك ، وكان ترددها هذا يزيد انشغالها بالطبيب

والتقت به ذا تصباح .. فما كان منها الا أن توارت كطفلة صغيرة حتى لا يراها ، ثم أحست بالضيق بعد ذلك من خجلها هذا ، فقد كانت طبيعتها المستقيمة الهادئة تحتج على هذا الاضطراب الذى كان يدخل فى حياتها ، ودفعها ذلك لان تقرر أن تقوم بزيارة الطبيب فى نفس اليوم

كان اليوم هو السبت ، وكانت أزمة جان قد حدثت ليلة الأربعاء .. وها قد أصبحت الصبية الآن فى حالة طبيعية تماما ، وكان الدكتور بودان قد هرع لزيارتها وقد استولى عليه قلق شديد ، وتحدث مع والدتها عن الدكتور ديبرل بلهجة تنم عن الاحترام الذى يكنه طبيب الحى العجوز لطبيب زميل شاب ذاع صيته بسرعة . ومع ذلك لقد أضاف وهو يبتسم أن الثروة قد حطت على الطبيب الشاب عن طريق والده الذى كان بدوره طبيبا يبجله سكان حى باسي جميعهم . فالابن لم يفعل شيئا سوى أن تكرم وورث ثروة والده التى تبلغ مليونا ونصف مليون من الفرنكات ، وكذلك مجموعة زبائن هذا الوالد الرائعة . وأضاف الطبيب أيضا

ان الدكتور ديبرل شاب ماهر جداً ، وانه مما يشرفه أن يتشاور معه بشأن جان صديقته الصغيرة الغالية



وفى نحو الساعة الثالثة ،نزلت هيلين وابنتها الى شارع فينوز.. وما ان سارتا فيه عدة خطوات حتى وصلتا الى منزل جارهما الطبيب . ودقت هيلين الجرس ففتح الباب خادم بملابسه الرسمية، وبعد أن قادهما الى غرفة جلوس صغيرة ذات اثاث فاخر للغاية ، وقف أمامهما ينتظر . وحينئذ اعطته هيلين اسمها قائلة : « مدام جرانجان »

ودفع الخادم باب صالون كبير ، وصاح معلنا : «مدام جرانجان»

وكادت تصدر عن هيلين حركة تقهقر ، وهى تعبر عتبة الصالون.. فقد وقع بصرها على سيدة شابة تجلس على اريكة ضيقة فى ركن بجوار المدفأة ، وكان ذيل ثوبها يغطى الاريكة كلها . وكانت تجلس أمامها سيدة متقدمة فى السن لم تكن قد خلعت قبعتها ولا شالها بعد ، ويبدو من سيمائها أنها فى زيارة للطبيب

وتمتمت هيلين تقول : « عفواً ، كنت أرغب فى رؤية الدكتور ديبرل » .

وامسكت بيد جان من جديد .. فعلى الرغم من أن هيلين كانت تعرف أن الدكتور ديبرل متزوج ، الا ان رؤيتها لهذه السيدة الشابة اثارت دهشتها وارتباكها فى آن واحد

وكانت مدام ديبرل تقول للزائرة المسنة بصوت سريع حاد النبرات :

ــ آه ! انها مسرحية مدهشة يا آنسة أوريلى ! مدهشة .. ان البطلة تموت بطريقة واقعية ! لقد امسكت بصدرها هكذا! والقت برأسها الى الخلف .. استحلفك بالله أن تذهبى لرؤيتها ..

وما ان وقع بصرها على هيلين حتى نهضت وتقدمت نحو الباب وثوبها يصدر حفيفا مسموعا ، وقالت برقة :

ــ تفضلى بالدخول يا سيدتى .. ان زوجى ليس هنا ، ولكننى سعيدة برؤيتك .. آه ! لابد ان هذه الآنسة الجميلة هى التى كانت متعبة فى تلك الليلة القريبة .. تفضلى بالجلوس .. اننى سعيدة

جدا برؤيتك . .

واضطرت هيلين الى الجلوس على احد المقاعد ، وجلست جان في خجل على حافة مقعد آخر . . أما مدام ديبرل فقد غطست من جديد في أريكتها الصغيرة ، واضافت تقول وهي تطلق ضحكة جميلة :

ــ انه يومي . . نعم ، فانا استقبل الضيوف يوم السبت ، ومن عادة هنري أن يأتي بالجميع الى هنا . . وقد احضر لي في الاسبوع الماضي كولونيلا مصابا بالفالج

وقالت الآنسة أوريلي ، وهي صديقة مسكينة عجوز لمدام ديبرل:

ــ هل أنت مجنونة يا جولييت ؟!

وسادت لحظة قصيرة من الصمت القت هيلين خلالها نظرة سريعة على غرفة الصالون ذات المقاعد السوداء المذهبة والستائر الفاخرة ، وكانت الازهار موضوعة بعناية فوق المناضد ، والمدفأة ، وعلى آلة البيانو . . وكان الضوء ينفذ من خلال زجاج النوافذ . . التي كان في وسع المرء أن يرى من خلالها أشجار الحديقة العارية من الاوراق، وهو جالس في مكانه بالغرفة

كان الجو حارا جدا ، فقد كانت تتوهج في المدفأة كتلة ضخمة من الخشب . . وكانت مدام ديبرل سيدة قصيرة القامة ممتلئة الجسم ذات شعر أسود فاحم وبشرة ناصعة البياض ، وكانت حركاتها تتسم بالبطء والرقة والجمال ، وتضع على وجهها مسحوقا براقا وردى اللون ، وقد وجدتها هيلين لطيفة للغاية

واستأنفت مدام ديبرل حديثها قائلة :

ــ ان التشنجات شيء مريع حقا . . لقد اصيب بها صغيري لوسيان حينما كان حديث السن ، ولابد انك كنت قلقة جدا يا سيدتي !. . ولكن ها هي ذي الصغيرة العزيزة تبدو الآن في تمام الصحة

وكانت وهي تتحدث تطيل النظر الى هيلين ، وقد تملكها مزيج من الدهشة والسرور بسبب جمالها الرائع . . اذ لم تكن قد رأت ، من قبل ، سيدة في مثل هذا الجمال ترفل في ملابس الحداد السوداء التي كانت تكسبها مزيدا من الجد والسمو والجلال . وكانت مدام ديبرل تبتسم ابتسامة لا ارادية لفرط اعجابها بهيلين ، كما كانت

تتبادل ، هي والآنسة أوريلي ، غمزة بالعين بين حين وآخر . كانت الاثنتان تفحصان هيلين في مزيج من السذاجة والانبهار ، حتى أن هذه الاخيرة لم تستطع الا أن تبتسم مثلهما ابتسامة خفيفة . .

وتمددت مدام ديبرل برفق على اريكتها ، وقالت وهي تمسك بمروحة معلقة في حزام وسطها :

ــ الم تشاهدي بالامس ، يا سيدتي ، العرض الاول لمسرح الفودفيل ؟

فاجابتها هيلين تقول :

ــ انني لا أذهب ابدا الى المسرح . .

فعادت مدام ديبرل تقول :

ــ آه ! . . لقد كانت نويمي الصغيرة مدهشة . . مدهشة للغاية ! انها تموت بطريقة طبيعية ! لقد امسكت باعلى صدرها هكذا والقت براسها الى الخلف ، وكانت النتيجة مذهلة . .

واخذت مدام ديبرل تناقش تمثيل هذه الممثلة بضع لحظات . . ثم انتقلت الى الحديث من احد معارض الرسم ، ومن احدى الروايات السخيفة التي أحاطتها الدعاية بضجة كبيرة . . ثم استطردت الى حديث آخر عن مغامرة خطيرة تحدثت عنها مع الآنسة أوريلي في كلمات مستترة . وكانت تنتقل هكذا من موضوع الى آخر في غير تعب وبصوت سريع النبرات ، وهي تعيش في هذا الجو كما لو كانت تعيش في جوها . وكانت هيلين ، وهي غريبة عن مثل هذا الجو ، تقنع بالانصات او ترد بين حين وآخر بكلمة موجزة . .

وفتح الخادم الباب ، واعلن قدوم مدام دي شيرميت ، ومدام تيسو . .

ودخلت سيدتان في ابهى زينة ، فتقدمت اليهما مدام ديبرل في شغف وهي تجر ذيل ثوبها الحريري الاسود المثقل بالتطريز . وسادت المكان ضوضاء متتابعة صادرة من اصوات رفيعة حادة قالت مدام ديبرل :

ــ لشد ما انتن لطيفات ! . . انني لا اراكن أبدا . .

فقالت احدى السيدتين :

ــ لقد اتينا من اجل هذا « اليانصيب » كما تعرفين !

فاجابت مدام ديبرل :

ـ تماما .. تماما ..

وقالت السيدة الاخرى :

ـ آه ! اننا لا نستطيع ان نجلس .. فلا يزال امامنا ان نمر بعشرين منزلا ..

فقالت مدام ديبرل :

ـ لا تهربن هكذا .. هيا اجلسا قليلا

وانتهى الامر بالسيدتين أن جلستا على حافة الاريكة ، وحينئذ تعالت تلك الاصوات الحادة الرفيعة مرة اخرى .. وعادت مدام ديبرل الى الحديث عن مسرح الفودفيل والممثلة نويمى .. مؤكدة اعجابها بروعة تمثيلها



وأخيرا انصرفت السيدتان .. وعاد الصالون مرة اخرى الى هدوئه ودفئه ، وكانت الازهار الثمينة تنفث فى المكان رائحة نفاذة للغاية . وللحظة ، تناهت من الحديقة أصوات مشاجرة عنيفة بين عدد من العصافير التى كانت تتصارع فوق المشبك . وقبل أن تجلس مدام ديبرل مرة ثانية ، ذهبت لتجلب الستار الحريرى المطرز على النافذة التى امامها ، ثم عادت الى مكانها فى أجمل موضع مذهب بالصالون وقالت : « أرجو المعذرة فقد قاطعتنا هذه العصافير .. »

وراحت تتحدث مع هيلين فى تؤدة وبطريقة ودية للغاية . وكان يبدو أن مدام ديبرل تعرف جزءا من قصة هيلين عن طريق الثرثرة التى كانت تتناثر بلا شك من البيت الذى تقيم به هيلين ، وهو البيت الذى تملكه مدام ديبرل وزوجها . وفى جرأة ولباقة تنطويان على كثير من الود والصداقة ، اخذت هيلين تحدثها عن زوجها ، وعن وفاته الرهيبة فى فندق بيفار بشارع ريشليو . وسألتها مدام ديبرل قائلة :

ـ وهل كنتم قد وصلتم لتوكم الى باريس ؟ انك لم تحضرى قط من قبل اليها .. لا بد أن هذا كان مريعا ، هذا الحزن فى مدينة غريبة غداة سفر طويل حيث لا يعرف المرء بعد أين يضع قدميه

كانت هيلين تهز راسها في بطء .. نعم ، لقد أمضيت ساعات مريعة حقا .. وكان المرض الذى مات به زوجها قد ظهر عليه فجاة غداة وصولهم في اللحظة التى كانا يتهيآن فيها للخروج معا ... انها لم تكن تعرف شارعا واحدا في باريس ، بل لقد كانت تجهل حتى في أى حى تنزل ، وكانت قد ظلت مع زوجها والباب مغلق عليهما طيلة ثمانية أيام .. كانت خلالها تراه يموت امام عينيها ، وهى تسمع ضوضاء باريس بأسرها تحت نافذتها ، وتشعر بانها وحيدة مهملة ضائعة .. وكانها ملقاة في أعماق هوة رهيبة من العزلة . وحين وضعت قدميها على افريز الشارع لأول مرة ، كانت قد أصبحت ارملة . وكان منظر هذه الغرفة الكبيرة الجرداء المكتظة بزجاجات الدواء حيث لم تفتح الحقائب بعد ، لا يزال يبعث في بدنها رجفة شديدة

وسألتها مدام ديبرل باهتمام بالغ ، بينما كانت الآنسة اورنيلى ترهف السمع حتى لا تفوتها كلمة واحدة من هذا الحديث :

— لقد قيل لى ان زوجك كان في ضعف عمرك تقريبا ؟!

فاجابتها هيلين قائلة :

— كلا .. ابدا ! انه كان يكبرنى بست سنوات على الأكثر

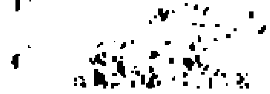
وتركت هيلين العنان لنفسها لتقص في بضع عبارات قصة زواجها ، والحب العظيم الذى كان يشعر به زوجها نحوها حينما كانت تقيم في بيت والدها موريه بائع القبعات بشارع دى بتيت مارى بمرسيليا ، والمعارضة العنيدة التى ابدتها أسرة زوجها ، وهى أسرة ثرية من مقطرى الكحول .. كانت ثائرة بسبب رغبة ولدها في الزواج من هذه الفتاة الفقيرة .. وحفل الزواج الحزين الذي لم خلبة اثر التهديد بحرمانه من حقه الشرعى في الميراث ، وهذه الحياة المهددة التى عاشاها سويا حتي جاء اليوم الذى مات فيه أحد أعمامه واوصى له بايراد سنوي قدره عشرة آلاف من الفرنكات تقريبا . وحينئذ قرر زوجها جرانجان الحضور للاستقرار في باريس ، لقد كره الاقامة في مرسيليا نظرا لموقف أسرته منه ..

وسألتها مدام ديبرل :

ـ وفى أى سن تزوجت اذن ؟
ـ فى السابعة عشرة ..
ـ لا شك انك كنت جميلة للغاية ..
وهذا الحديث، وبدا على هيلين انها لم تسمع اطراء مدام ديبرل لجمالها
وأعلن الخادم قائلا : « مدام مانجولان » ...
وظهرت على الفور سيدة شابة متحفظة تبدو عليها أمارات الخرج ، فنهضت لها مدام ديبرل .. وقد جاءت لتشكرها على خدمة قامت بها من اجلها. ومكثت الزائرة بضع دقائق ثم انسحبت وهى تنحنى بالتحية



وعادت مدام ديبرل من جديد الى الحديث ، فاخذت تتكلم من القسيس جوف .. وكان جوف راعى كنيسة «نوتردام دوجراس» وهى تابعة لأبرشية حى باسى .. ولكن تقواه كانت تجعل منه القسيس المحبوب والمسموع أكثر من غيره فى هذا الحى . وتمتمت مدام ديبرل تقول باحترام عميق ، حين تطرق الموضوع الى القسيس جوف :
ـ أوه ! انه رجل مبارك !
فقالت هيلين :
ـ لقد كان طيبا معنا حقا ، وقد عرفه زوجى حينما كنا فى مرسيليا . ولما علم بمصيبتى تكفل بكل شىء .. انه هو الذى اسكننا فى حى باسى
فسألتها جولييت قائلة :
ـ اليس له اخ ؟
ـ نعم .. لقد تزوجت والدته مرة ثانية .. ان أخاه السيد رامبو كان يعرف زوجى أيضا .. وقد أسس متجرا كبيرا فى شارع رامبوتو لبيع الزيوت ومنتجات أواسط فرنسا ، واعتقد انه يربح مالا كثيرا
ثم اضافت تقول فى مرح :
ـ ان القسيس وأخاه السيد رامبو هما كل حاشيتى ...»



وكانت جان المتضايقة على حافة مقعدها تنظر الى امها بصبر نافد ، وكان وجهها الرقيق يتألم كما لو كانت تندم على كل ما كان يقال .. ويبدو انها كانت تستنشق بين لحظة وأخرى الرائحة الزكية العنيفة التى تنبعث من الازهار ، كما كانت تلقى بنظرات جانبية على قطع الاثاث .. ثم تنقل نظراتها الى والدتها فى حب وعبادة

ولاحظت مدام ديبرل عدم ارتياح الفتاة الصغيرة ، فقالت :

ــ ان الآنسة الصغيرة متضايقة لانها عاقلة كشخص كبير ... خذى ، هاك كتبا بها صور جميلة فوق هذه المنضدة ..

وذهبت جان لتأخذ كتابا .. ولكن نظراتها كانت تنساب فى توسل نحو امها من فوق الكتاب . واحست هيلين بأنها تندمج مع مدام ديبرل بسبب لطف هذه الاخيرة ورقتها . وظلت هيلين هادئة مسرورة فى مكانها لمدة ساعات .. ومع ذلك ، لقد فكرت فى الانصراف حين أعلن الخادم وصول ثلاث سيدات : مدام بريتيه ومدام جيرو ، ومدام لوفاسور . ولكن مدام ديبرل صاحت تقول لها : « امكثى يجب أن أجعلك ترين ابنى » .

كانت الدائرة تتسع أمام المدفأة ، واخذت هؤلاء السيدات يتحدثن معا ، وكانت بينهن واحدة تزعم انها محطمة من التعب لانها لم تنم قبل الساعة الرابعة صباحا منذ خمسة ايام ، واخرى تشكو فى مرارة من المرضعات بقولها : « لقد اصبحنا لا نجد الآن مرضعة واحدة أمينة » . ثم دار الحديث عن الحائكات ، فدافعت مدام ديبرل عن فكرة أن المرأة لا تستطيع أن تجيد صنع رداء نسائى . واثناء ذلك ، كانت سيدتان تتهامسان فى صوت خافت كلما سادت فترة من الصمت . واحيانا كانت النسوة ينفجرن جميعا فى الضحك .. وكل منهن تروح عن نفسها بمروحتها فى تكاسل ..

ثم اعلن الخادم قائلا : « السيد مالينيون »

وحينئذ دخل شاب طويل القامة انيق الهندام للغاية .. فحيته الحاضرات فى شىء من الاعجاب . ومدت اليه مدام ديبرل يدها ، وهى تقول دون أن تنهض :

ـ حسنا .. ما رأيك في مسرح الفودفيل بالأمس ؟
فصاح الشاب قائلا :
ـ آوه ! انه كان كريها :
فردت مدام ديبرل :
ـ كيف ذلك ؟!.. ان الممثلة كانت رائعة ، وهي تقبض على أعلى صدرها بشدة ، وتلقي براسها الى الوراء هكذا ..
فقال الشاب :
ـ دعك من ذلك .. لقد كان هذا كريها لكثرة ما هو واقعي..
وحينئذ بدأت المناقشة ، وكانت كلمة « الواقعية » يلقى بها جزافا وكيفما اتفق ، ويبدو ان هذا الشاب لم يكن يعرف مطلقا ما هي « الواقعية » !
وكان يقول وهو يرفع صوته : « ان الواقعية لا تصلح في شيء ، اتفهمينني ؟.. لا تصلح في شيء !.. انها تهبط بمرتبة الفن ، وسوف ينتهي بنا الامر بأن نرى اشياء قبيحة على خشبة المسرح باسم الواقعية !.. لماذا لم تمض الممثلة نويمي في تمثيل منظر الموت الى آخر الشوط ؟ »
وقام الشاب بحركة تقليد أخجلت الحاضرات ! ولكن مدام ديبرل أصرت على اعجابها بالممثلة ، وروت مدام لوفاسور أن سيدة قد أغمي عليها وهي في بلكون المسرح .. وحينئذ وافقت جميع الحاضرات على أن هذه المسرحية عمل رائع ، وبذلك حسمت المناقشة على الفور
كان الشاب يجلس متمددا في مقعد وثير وسط جونلات السيدات المفرودة ، ويبدو انه كان صديقا حميما جدا لبيت الدكتور ديبرل ، وكان يمضغ بين اسنانه زهرة أخذها من حوض كبير للزهور .
وسألته مدام ديبرل تقول :
ـ هل قرأت الرواية .. ؟
ولم يدعها تتم السؤال ، وقاطعها بلهجة متعالية :
ـ انني لا اقرأ سوى روايتين في العام .. أما فن المعرض الذي تقيمه جمعية الفنون ، فهو حقا لا يستحق منا أن تكلف انفسنا عناء الذهاب لمشاهدته

ولما استنفد الشاب كل موضوعات حديث اليوم ، اتى ليتكىء بمرفقه على الاريكة الصغيرة التى تجلس عليها مدام ديبرل ، وتبادل معها بضع كلمات بصوت منخفض .. بينما كانت السيدات الاخريات يتبادلن الحديث فى شغف ..

وصاحت احداهن تقول ، وهى تلتفت خلفها بعـــد ان رحل الشاب :

ــ لقد رحل .. انني التقيت به منذ ساعة عند مدام روينو

فقالت مدام ديبرل :

ــ نعم ، وهو يتردد كذلك على بيت مدام لوكونت .. آه ! إنه اكثر رجال باريس انشغالا

ووجهت الحديث بعد ذلك الى هيلين التى كانت تنصت طيلة الوقت :

ــ انه فتى ممتاز للغاية ، ونحن نحبه كثيرا .. وله مصالح لدى احد مستبدلى العملة الاجنبية . وهو من ناحية اخرى شاب ثرى جدا ويعرف كل شىء ..

وبدات السيدات فى الانصراف ، وقالت احداهن :

ــ وداعا ياسيدتى العزيزة .. اننى اعتمد عليك يوم الاربعاء ..

فردت مدام ديبرل :

ــ نعم ، وهو كذلك .. الى اللقاء يوم الاربعاء

ــ قولى لى .. هل سنراك فى هذه السهرة ؟ ان المرء لا يعرف قط مع من سيكون .. انني ساذهب اذا ذهبت انت الى هناك

ــ حسنا .. سوف اذهب اذن ، انى اعدك بذلك .. بلغى تحياتى الخالصة الى السيد دى جيرو

وحين عادت مدام ديبرل ، وجدت هيلين تقف وسط الصالون، وكانت جان ملتصقة بأمها وقد امسكت بيديها وراحت تجذبهـــا جذبات صغيرة نحو الباب فى شىء من العصبية والمداعبة

وغمغمت مدام ديبرل تقول : « آه ! هذا صحيح »

ثم دقت الجرس لاستدعاء الخادم ، وقالت له : « بيير .. قل للآنسة سميثون أن تحضر الى لوسيان .. »

واثناء فترة الانتظار ، فتح الباب من جديد فى غير كلفة ودون

ان يعلن الخادم عن وصول أحد .. ودخلت فتاة جميلة في السادسة عشرة يتبعها شيخ قصير القامة ذو لون وردي ووجه ممتلىء.

وقالت الفتاة الشابة ، وهي تقبل مدام ديبرل :

ـ طاب يومك يا أختي ..

فاجابتها مدام ديبرل قائلة :

ـ طاب يومك يا بولين .. طاب يومك يا والدي ..

ونهضت الآنسة أوريلي ، ولم تكن قد تحركت من ركن المدفاة طيلة الوقت ، لتحيى السيد اوتيلييه ، وهو شيخ يملك متجرا كبيرا لبيع الحرير في كابيسين ، واعتاد منذ وفاة زوجته على أن يتنزه في كل مكان مع ابنته الوسطى ليبحث لها عن زيجة جميلة

وسألت « بولين » جولييت قائلة :

ـ هل كنت بالامس في مسرح الفودفيل ؟

فردت جولييت بطريقة آلية ، وهي تلم خصلة متمردة من شعرها أمام المرآة :

ـ آه ! .. انه رائع !

ومطت بولين شفتيها كما تفعل الفتاة المدللة ، وقالت :

ـ انه لما يضايق حقا أن يكون الانسان فتاة شابة ، فهو لايستطيع حينئذ أن يرى شيئا ! .. لقد ذهبت مع والدي حتى باب المسرح عند منتصف الليل لنعرف كيف سارت المسرحية

وقال الوالد :

ـ نعم .. وحينئذ قابلنا مالينيون واخبرنا بانها حسنة للغاية ..

فقاطعته جولييت قائلة :

ـ لقد كان هنا منذ لحظة .. وقال انها كريهة للغاية .. ان المرء لا يستطيع أن يعرف أبدا ما هو رأيه !

وسألت بولين جولييت ، وهي تنتقل فجاة الى موضوع آخر :

ـ هل كان عندك كثير من الزائرين ؟

ـ آه ! انه عدد جنوني .. كل هؤلاء السيدات ! ان الصالون لم يخل أبدا ، انني أموت تعبا ..

وتذكرت مدام ديبرل أنها نسيت أن تقدم هيلين وابنتها كما تقضي الاصول ، فقطعت حديثها قائلة : « والدي ، واختي .. مدام

جرانجان .. »

ودار الحديث بين الجميع عن الاولاد والجروح التى يتعرضون لها وتسبب ازعاجا كبيرا للأمهات ، وحينئذ تقدمت الآنسة سمبتون المربية وهى تمسك صبيا صغيرا من يده . ووجهت اليها مدام ديبرل فى عنف بعض كلمات باللغة الانجليزية لانها جعلتها تنتظر . .

وصاحت الفتاة بولين ، وهى تجثو على ركبتيها أمام الصبى :

— آه ! هاهو ذا صغيرى لوسيان !

فقالت جوليت :

— دميه .. دميه . تعال هنا يا لوسيان .. قل لهذه الآنسة : طاب يومك

فأطاع الصبى الصغير والدته وتقدم فى ارتباك ، وكان فى نحو السابعة من عمره ، بدينا قصيرا ، ولكنه كان مهندما .. وكأنه دمية . وحينما رأى الصبى ان الجميع كانوا ينظرون اليه ويبتسمون ، توقف عن السير وأخذ يفحص جان بعينين زرقاوين تطل منهما الدهشة

وتمتمت أمه تقول : « هيا .. يا لوسيان ! »

فحدقها بنظرة قلقة ، ثم سار بضع خطوات أخرى فى تثاقل واضطراب ، وقد غاصت رقبته بين كتفيه وامتدت رموشه الماكرة قليلا الى الامام ، وكذلك شفتاه الغليظتان .. كانت جان تخجله لانها كانت شاحبة البشرة ذات مظهر جاد وترتدى ملابس الحداد السوداء

وقالت هيلين حينما رأت موقف ابنتها الجامد : « يجب عليك يا ابنتى أن تكونى أيضا لطيفة »

لم تكن الفتاة الصغيرة قد تركت معصم امها ، وكانت تنتظر قدوم لوسيان وقد بدت كفتاة متوحشة عصبية قلقة تتأهب للهرب أمام أول مداعبة . ومع ذلك ، تقدمت بدورها خطوة الى الامام حين دفعتها والدتها برفق ..

وقالت مدام ديبرل وهى تضحك :

— يا آنسة .. ينبغى أن تقبليه .. ان على السيدات أن يبدأن معه .. آه ! ياللحيوان البدين !

فقالت هيلين :
ـ قبليه يا جان
فرفعت الصبية عينيها الى والدتها ، ويبدو انها تأثرت لمنظر الصبى الصغير الذى يدل شكله على الغباء ، وتملكها حنان مفاجىء امام وجهه الطيب المرتبك ، فابتسمت له ابتسامة حلوة للغاية وقد اشرق وجهها بفيض من السرور ، وقالت الصبية لوالدتها :
ـ بكل سرور يا اماه ..
وامسكت بلوسيان من كتفيه ورفعته قليلا عن الارض ، ثم طبعت على وجنته قبلة صغيرة .. وحينما اراد الصبى بدوره أن يقبلها ، صاح الحاضرون فى صوت واحد :
ـ حسنا جدا !



ثم حيت هيلين الحاضرين .. واتجهت صوب الباب تصحبها مدام ديبرل ، وقالت هيلين :
ـ ارجو يا سيدتى أن تتفضلى بتقديم خالص شكرى للسيد الطبيب .. لقد انتزعنى فى تلك الليلة من قلق مميت ..
فقاطعها السيد لوتيلييه قائلا :
ـ اليس هنرى الان هنا ؟
فاجابت جولييت والدها قائلة :
ـ كلا .. انه سيعود فى وقت متأخر
واضافت جولييت تقول حين رات الآنسة اوريلى تنهض للخروج مع هيلين :
ـ ولكننا اتفقنا على أن تبقى معنا لتناول العشاء
وحينئذ خلعت الآنسة العجوز قبعتها وشالها ، فقد كانت تنتظر هذه الدعوة يوم السبت من كل اسبوع
وعلى عتبة الباب ، مدت مدام ديبرل يدها لهيلين وهى تقول فى مزيج من الود والصراحة :
ـ اسمحى لى ان اخبرك بان زوجى حدثنى عنك فشعرت بانجذاب اليك ، فالنكبة التى نزلت بك ، ووحدتك .. أخيرا ، فانا سعيدة برؤيتك ، واقدر أن علاقتنا لن تتوقف عند هذا الحد

فأجابتها هيلين ، وقد تأثرت كثيراً لهذه السيدة التى بدت فى نظرها مضطربة التفكير بعض الشيء :

ــ انني أعدك بذلك واشكرك ..

وظلت أيديهما متشابكة ، وهما يتبادلان النظر والابتسام وجها لوجه . وقالت جوليت مداعبة :

ــ انك جميلة الى حد انه لا مفر لى من ان احبك !

فاخذت هيلين تضحك فى هدوء وثقة ، ثم احتجزت مدام ديبرل الفتاة الصغيرة لحظة اخرى ، وهى تقول :

ــ انكما منذ الان صديقان حميمان ، فليقل كل منكما للآخر : الى اللقاء

وارسل كل من الصبى والصبية الى الآخـــر قبلة من طرف أصابعه



الفصل الثالث

عند الأم فيتو

اعتادت هيلين أن تستقبل على مائدة العشاء كل ثلاثاء القسيس جوف واخاه السيد رامبو .. ان هذين الرجلين كانا قد طرقا باب مسكنها ليلا خلال الايام الاولى لترملها .. وجلسا معا على مائدتها في شيء من الجراة والود كي يخرجاها مرة على الاقل كل اسبوع من هذه العزلة التى كانت تعيش فيها .. وهكذا أصبح عشاء يوم الثلاثاء هذا تقليدا ، وكان المدعوان يتقابلان في تمام الساعة السابعة مساء وكأنه واجب مقدس ، وبنفس السرور الهادىء

وفي مغرب يوم الثلاثاء هذا ، جلست هيلين بجوار النافذة في انتظار وصول ضيفيها ، وهى تقوم ببعض أشغال الابرة . لقد كانت تعيش هنا طيلة أيامها في سلام عذب للغاية ، وكانت تحب هذه الغرفة المتسعة الهادئة جدا بنفحاتها البرجوازية واخشابها الثمينة ومخملها الازرق . وفي البداية ـ حينما جعلها صديقاها تستقر فيها ـ تألمت هيلين قليلا من جراء هذا الترف الضخم في المعيشة ، ولكن انتهى بها الامر أخيرا الى أن أصبحت سعيدة للغاية في هذا الوسط الذى أحست بأنه هادىء وبسيط مثل قلبها .. فهذه الستائر الثقيلة ، وقطع الاثاث الضخمة المظلمة كانت تزيد من هدوئها . وكان الترويح الوحيد الذى تستمتع به هيلين خلال ساعات عملها الطويلة ، ينحصر في أن تلقي نظرة على الافق الواسع وعلى باريس الضخمة التى كانت تبدو أمامها بأسطح منازلها كبحر هائج

وقالت جان التى كانت جالسة الى جوار امها على مقعد منخفض لتساعدها في التطريز :

ـ لم أعد أرى بوضوح يا أماه ..

وتركت الفتاة الصغيرة تطريزها يسقط من يدها ، وهى تلقى بنظرة هادئة على المدينة التى بدأت تغرق فى ظلال كبيرة . وطبقا لتعليمات صريحة صادرة من الدكتور بودان ، كانت هيلين تصطحب جان الى غابة بولونيا لمدة ساعتين كل يوم ، وكانت تلك هى نزهتهما الوحيدة ، فهما لم تنزلا باريس غير ثلاث مرات طيلة اقامتهما فى هذه المدينة ، التى استغرقت ثمانية عشر شهرا . وكانت الصبية لا تبدو مرحة قط فى اى مكان ألا فى الغرفة الكبيرة الزرقاء التى لم تكن تحب أن تفادرها . وكانت هيلين قد اضطرت الى أن تتنازل من تعليمها الموسيقى ، فقد كانت الصبية تبكى وترتجف كلمـــــا سمعت عزف الارغن فى سكون هذا الحى . وكثـــيرا ما كانت جان تساعد أمها فى حياكة الثياب لفقراء أبرشية القسيس جوف

كان الليل قد دخل تماما حين دخلت الخادم روزالى تحمـــل مصباحا ، وكانت تبدو مرتبكة تماما فى غمار حماسها الكبـــير كطاهية ، اذ كان عشاء يوم الثلاثاء هذا هو الحدث الوحيـــد فى الاسبوع الذى يقلب المنزل راسا على عقب

وسألت روزالى سيدتها قائلة :

ـ الن يحضر السادة الليلة يا سيدتى ؟

فنظرت هيلين الى ساعة الحائط ، وقالت :

ـ الساعة الآن السابعة الا ربعا ، وهم على وشك الحضور

وكان القسيس جوف هو الذى أحضر روزالى الى هيلين ، وكان قد التقطها من محطة أورليان عند وصولها الى باريس لاول مرة ، وهى لا تعرف اى شارع من شوارع المدينة . وكان أحد زملائه السابقين فى دراسة اللاهوت ـ وهو قسيس فى احدى القـــرى باقليم بوس ـ قد ارسلها اليه . وكانت روزالى قصيرة بدينـــة مستديرة الوجه ذات شعر غزير أسود ، وأنف مفرطح وفم أحمر ، وماهرة فى صنع أطباق الطعام .. اذ انها كبرت فى مسكن قسيس القرية هذا مع شبينتها خادمة هذا القسيس .

قالت روزالى وهى تذهب لتفتح الباب قبل أن يدق الجرس :
« آه ! .. ها قد حضر السيد رامبو ! » .

وظهر السيد رامبو بشعره الرمادى وقامته الربعة ، ووجهه الذى يشبه وجه موثق عقـود ريفى ، وكان لعينيه الواسعتين الزرقاوين تعبير ينم عن الدهشة والسذاجة وكأنهما عينا طفل صغير

وقالت روزالى بعد لحظة ، وهى تفتح الباب من جديد : « وهاهوذا السيد القسيس .. لقد حضر كل ضيوفنا ! »

وبينما كان السيد رامبو يجلس بعد أن صافح هيلين دون أن يتكلم ، ويبتسم فى ألفة وكأنه فى منزله ، كانت الصغيرة جان تلقى بنفسها بين ذراعى القسيس وهى تقول :

— طاب يومك يا صديقى الطيب .. لقد كنت مريضة جدا

فقال القسيس فى دهشة ، وقد اتسعت عيناه النصف مغلقتين، وبدا فيهما نور جميل من الحنان :

— مريضة جدا يا عزيزتى ؟!



واستولى القلق على الرجلين وخاصة القسيس ، وهو رجل قصير جاف العود ، له رأس ضخم لا رقة فيه ، ويرتدى زيه فى غير عناية . وتركت له جان احدى يديها واعطت الاخرى للسيد رامبو ، فأمسك بهما الاثنان فى حنان واخذا ينظران اليها فى قلق. واضطرت هيلين أن تقص عليهما أزمة ابنتها ، وكاد القسيس يغضب لأنها لم تخطره بذلك

قالت هيلين وهى تبتسم :

— انكما تحبانها اكثر منى ، وأود أن أطمئنكما .. فهى لم تشعر بشىء بعد ذلك ، اللهم الا بعض الآلام فى اعضاء الجسم وثقل فى الرأس ..

وجاءت الخادم لتعلن بان الطعام قد تم اعداده ..

كانت غرفة الطعام تحتوى على أثاث من خشب ثمين ، وتضم منضدة وبوفيه وثمانية مقاعد .. وذهبت روزالى وارخت الستائر الحمراء

وكان طعام العشاء يعيد نفس الأحاديث كل ثلاثاء ، ولكنهم فى هذا اليوم تحدثوا بالطبع عن الدكتور ديبرل .. فاطراه القسيس

كثيرا على الرغم من ان هذا الطبيب لم يكن تقيا جدا . وكان القسيس يتحدث عنه كرجل مستقيم .. قلبه مفعم بالاحسان ، وهو أب وزوج طيب للغاية ، ويعطى احسن المثل لغيره . أما مدام ديبرل ، فقد قال عنها انها سيدة ممتازة على الرغم من بعض المظاهر التى ترجع الى تربيتها الباريسية الفريدة . وباختصار ، فهما زوجان لطيفان . وبدت هيلين سعيدة لانها كانت ترى نفس الرأى ، وكان ما يقوله القسيس يشجعها على الاستمرار فى علاقتها بالدكتور ديبرل وزوجته ، وهى العلاقة التى كانت تخشاها فى بادىء الامر

وقال القسيس :

ـ انك تعتكفين أكثر مما يجب

وأيده السيد رامبو قائلا :

ـ بلا شك ..

وكانت هيلين تنظر اليهما بابتسامتها الهادئة ، كما لو كانت تقول لهما انهما يكفيانها ، وانها تخشى أية صداقة جديدة . ولكن الساعة دقت العاشرة ، فأخذ القسيس واخوه قبعتيهما .. وكانت جان قد نامت لتوها على أحد المقاعد ، فمالا عليها لحظة وهما يهزان رأسيهما بامتنان حين شاهدا هدوء نومها ، ثم رحلا على أطراف أصابعهما . وفى المدخل ، قالا بصوت منخفض :

ـ الى اللقاء يوم الثلاثاء ..

ثم أضاف القسيس يقول فجاة :

ـ آه ! لقد نسيت أن أخبرك بأن الام « فيتو » مريضة ، ويجب عليك أن تذهبى لرؤيتها ..

فأجابته هيلين قائلة :

ـ سوف أذهب غدا



كان القسيس يبعث بهيلين فى زيارات للمساكين الذين يرعاهم وكان يحب أن يفعل ذلك ، ويتحدث معها كثيرا عنهم

وفى اليوم التالى ، خرجت هيلين بمفردها دون أن تأخذ معها جان لانها ظلت ترتعد ذات مرة طيلة يومين بعد عودتها من زيارة لشيخ مشلول ، وسارت هيلين فى شارع فينوز ثم فى شارع رينوار مارة بطريق يدعى « ممر المياه » ، وهو طريق مخنوق بين جدران

الحدائق المجاورة ، ثم بشارع موحش يتحدر نحو ارصفة السين من مرتفعات « باسي » وعند أسفل هذا المنحدر ، وفي منزل آيل للسقوط . . كانت الام فيتو تسكن في غرفة صغيرة تشبه «الصندرة» تضيئها كوة مستديرة ، وتزدحم بسرير خشن ومنضدة عرجاء ، ومقعد زال عنه القش

وما أن رأت الام « فيتو » هيلين وهي تدخل حتى أخذت تئن وتقول :

ـ آه . . ياسيدتي الطيبة ، ياسيدتي الطيبة . .

كانت الام فيتو ممددة ، وكانت على الرغم من بؤسها البادي بدينة كروية الشكل ، ذات عينين صغيرتين دقيقتين وصوت باك . . وكانت تجذب بين الحين والآخر ملاءة السرير المهلهلة بيدين يخيل للمرء لفرط بدانتهما انهما متورمتان . . واستطردت الام فيتو تقول :

ـ آه ! آه ياسيدتي الطيبة . اشكرك ! لشد ما اتالم ! انني أحس بأن كلابا تنهش جنبي . . . آه ! ان لدي بكل تأكيد حيوانا في بطني ! انه هنا ، انظري . . . ان البشرة ليست مصابة ، فالالم في الداخل . آه ! مسكينة انا ! الالم لم ينقطع منذ يومين ! هل هذا ممكن بالهي الكريم ! كل هذا الالم . . . آه ! شكرا ياسيدتي الطيبة ! انك لاتنسين المساكين ، ولن ينسى الله لك ذلك ، نعم . . . لن ينسى لك ذلك . . .

وجلست هيلين ، ولمحت اناء به شراب ساخن على المنضدة ، فملأت منه فنجانا كان موضوعا الى جواره ومدت به يدها الى المرأة المريضة ، وكان بالقرب من الاناء بضع قطع من السكر ، وبرتقالتان ، وبعض الحلوى

وقالت هيلين تسألها :

ـ هل جاء أحد لزيارتك ؟

فقالت المريضة :

ـ نعم . . . حضرت سيدة صغيرة الجسم ، ولكنها لاتعرف . . . آه ! ليس هذا هو مايلزمني بالمرة . . . آه ! لو كان عندي فقط بعض اللحم لسلقته جارتي لي مع بعض الخضر . . مسكينة انا . . آه ! ان الالم يشتد علي . . حقيقة انه ككلب مسعور ينهش

لحمى ... آه ! لو كان لدى بعض الحساء ...

وعلى الرغم من الآلام التى كانت تجعل المريضة تتلوى ، الا أنها كانت تتابع هيلين بعينيها الدقيقتين وهى مشغولة بالبحث فى جيبها . ولما رأتها تضع قطعة من ذات العشرة فرنكات على المنضدة ، ازدادت أنينا وبذلت جهدا لتجلس ، ومدت يدها فأخذت قطعة النقود وأخفتها وهى تقول :

ـ يا الهى ! هاهى ذى أزمة جديدة . كلا .. اننى لم أعد أستطيع ان أظل هكذا ... سوف يكافئك الله ياسيدتى الطيبة ... سأقول له ان يرد لك ذلك ... آه ! ان الالم يسرى فى كل بدنى ... لقد أكد لى السيد القسيس انك سوف تحضرين ، ولا يوجد احد غيرك ياسيدتى يعرف حسن المعاملة .. اننى سأشترى حالا بعض اللحم ... هاهو ذا الالم ينتقل الى فخذى ... اعينينى ياسيدتى ، فلم أعد أستطيع أن أحتمل ... آه ! لم أعد أستطيع أن احتمل

كانت المرأة تريد أن تتقلب فى الفراش ، فنزعت هيلين قفازها وأمسكت بها فى رفق شديد .. وجعلتها تتمدد من جديد . وبينما كانت هيلين منحنية على المريضة ، فتح الباب ، ولشد ماكانت دهشتها حين رأت الدكتور ديبرل يدخل ، وقد احمرت وجنتاه من الخجل . اذن ، فهو أيضا كان يقوم بزيارات للمرضى لايتحدث عنها !

وتمتمت المرأة العجوز قائلة :

ـ انه السيد الطبيب .. انكم جميعا طيبون جدا ، فلتباركم السماء جميعا !

وحيا الطبيب هيلين بطريقة غير ملحوظة ، وكفت الام فيتو منذ أن دخل الطبيب عن الانين بنفس القوة التى كانت تئن بها من قبل ، وظلت تتأوه تأوهات صغيرة مستمرة وكأنها طفل يتألم .. غير أن المرأة أدركت تماما أن الطبيب والسيدة يعرف كل منهما الآخر ، فلم تحول بصرها عنهما وراحت تنقل عينيها بين الاثنين والآف التجاعيد التى بوجهها تعمل بطريقة خفية . ووجه اليها الطبيب بعض الاسئلة وقام بفحص جنبها الايمن ، ثم التفت الى

هيلين التي كانت قد جلست لتوها وتمتم يقول :

ـ انه مغص كلوى ، وستقف على قدميها بعد أيام

ثم انتزع صفحة من مفكرته بعد أن دون عليها بضعة أسطر وناولها للأم فيتو وهو يقول :

ـ خذى .. أرسلى هذه الورقة الى صيدلى شارع باسى ، وعليك أن تأخذى كل ساعتين ملعقة صغيرة من الدواء الذى سيعطيه لك

وحينئذ أخذت الام فيتو تدعو له من جديد . وكانت هيلين لا تزال جالسة ، وبدا على الطبيب أنه يتلكأ حين تقابلت أعينهما ، ولم يلبث أن حيا وانسحب بطريقة تنطوى على المجاملة . ولم يكد ينزل الدرج طابقا واحدا حتى عادت الام فيتو الى أناتها الشديدة ، وهى تقول « آه ! يا للطبيب الطيب ! المهم ان يفعل لى دواؤه شيئا ... آه ! فى وسعك أن تقولى انك شاهدت هنا طبيبا شجاعا ، وربما تعرفينه ياسيدتى منذ زمن طويل ؟ ... يا ألهى ! لشد ما أنا ظمآى ! اننى احس بنار فى جوفى ... انه متزوج أليس كذلك ؟ انه يستحق تماما أن تكون له زوجة طيبة وأولاد على جانب كبير من الجمال ... وأخيرا ، فانه لمما يسر المرء أن يرى الناس الطيبين يعرف بعضهم بعضا »

وكانت هيلين قد نهضت لتناولها كوبا من الماء ، وبعد أن شربت المرأة قالت لها هيلين :

ـ حسنا .. الى اللقاء اذن أيتها الام فيتو .. الى اللقاء غدا ...

ـ وهو كذلك ... كم انت طيبة ! ... آه لو كانت عندى فقط بعض الملابس الداخلية ! انظري الى قميصي ، انه قطعتان ، وأنا أنام على قاذورات ... لا بأس ! ان الرب الكريم سيرد اليك كل ذلك ...



وفى اليوم التالى وصلت هيلين الى الام فيتو فوجدت الدكتور ديبرل قد سبقها الى هناك ، وكان جالسا على المقعد يكتب لها تذكرة الدواء ، بينما كانت المرأة العجوز لاتكف عن حديثها الذى يشبه البكاء فتقول : « والآن ياسيدى ، انه ألم كالرصاص ...

ولا أستطيع أن أتقلب »

وحينما لمحت هيلين لم تستطع أن تمنع نفسها من الكلام ، فاستطردت تقول : « آه ! انها السيدة الطيبة .. هذا ماكنت اقوله تماما لهذا السيد العزيز ، كنت أقول انك ستحضرين حتى لو هوت السماء على الارض .. انها قديسة ياسيدى وملاك جميل من الجنة . آه ياسيدتى الطيبة ، ان حالتى ليست أحسن ، وفى هذه الساعة اشعر برصاص هنا ... نعم ، لقد رويت له كل ماتفعلينه من أجلى . ان الامبراطور لن يفعل لى خيرا مما تفعلين انت . آه ! ان من لايحبك لابد أن يكون انسانا متحجر القلب ... »



وبينما كانت العجوز تطلق هذه العبارات ، وهى تدحرج رأسها على الوسادة وعيناها الصغيرتان نصف مقفلتين ، كان الطبيب يبتسم لهيلين وهى واقفة يبدو عليها الحرج

وتمتمت هيلين قائلة :

ـ لقد احضرت لك بعض الملابس الداخلية ...

ـ شكرا ، شكرا ... سيرد الله لك ذلك . انك مثل هذا السيد العزيز . فهو يحسن الى الفقراء أكثر مما يفعل جميع افراد مهنته . انك لاتعرفين انه عالجنى لمدة أربعة أشهر وأعطانى الدواء والحساء والنبيذ . ان الكثير من الاثرياء ليسوا شرفاء هكذا مع المساكين . انه أيضا ملاك من ملائكة الله الكريم ... آه ! يالى من مسكينة ! اننى احس كان فى بطنى منزلا كاملا

وبدا الارتباك على الطبيب بدوره ، فنهض وأراد أن يقدم مقعده لهيلين ... وعلى الرغم من انها جاءت وفى نيتها أن تقضى ربع ساعة على الاقل ، رفضت قائلة :

ـ شكرا يا سيدى .. ان فى نيتى ان اعود بسرعة

واثناء ذلك ، مدت الام فيتو ذراعها وهى تواصل دحرجة رأسها وأخفت الربطة التى بها الملابس الداخلية فى قاع السرير ، ثم تابعت حديثها قائلة :

ـ آه ! اننا نستطيع أن نقول انكما شبيهان ... اننى اقول ذلك دون أن اضايقكما لانه صحيح ... ومن يدرى ، لعل احدكما قد رأى الاخر . ان الناس الطيبين يفهم بعضهم بعضا .. يا الهى !

اعطنى يدك ياسيدتى لكى أقلب ! نعم ، نعم ... انهم يفهمون بعضهم بعضا ...

وقالت هيلين وهى تغادر المكان

ـ الى اللقاء ايتها الام فيتو ... لا أعتقد انني سأمر غدا ..

ومع ذلك ، فقد ذهبت اليها فى اليوم التالى ، وكانت العجوز نائمة . وحين استيقظت وابصرت هيلين جالسة على المقعد صاحت تقول :

ـ لقد حضر ... اننى لا اعرف ما هو الدواء الذى جعلنى أتناوله ، فانا احس باننى متصلبة كالعصا .. آه ! لقد تحدثنا عنك ، وقد سألنى عن أمور كثيرة ، وعما اذا كان وجهك دائما حزينا هكذا ... انه رجل طيب للغاية !

وابطأت العجوز فى حديثها ، وبدا عليها أنها تنتظر صدى لكلامها على صفحة وجه هيلين فى شيء من السرور والقلق الذى يستولى على الفقراء حينما يريدون ان يدخلوا السرور على قلوب اشخاص من طبقة راقية . ولاشك ان العجوز رأت فى وجه هيلين تعبيرا ينم عن عدم الرضا ، فانطفأ وجه الام فيتو فجأة ، وقالت فى تلعثم :

ـ اننى دائما نائمة ، واخشى أن أكون قد تسممت .. فهناك امرأة فى شارع لانونسيا قتلها الصيدلى لانه اعطاها دواء بدلا من آخر



فى هذا اليوم ، تأخرت هيلين نحو نصف ساعة عند الام فيتو وهى تسمعها تتحدث عن مسقط رأسها .. اقليم نورماندى ، حيث يشرب الناس لبنا طيبا .. وبعد لحظة من الصمت ، سألتها هيلين قائلة فى عدم اكتراث :

ـ هل تعرفين الدكتور منذ وقت طويل ؟

فرفعت العجوز جفنيها قليلا ثم اغلقتهما ثانية ، وقالت بصوت خافت بعض الشيء :

ـ آه ! نعم ! فقد كان والده يعالجنى قبل عام ١٨٤٨ ، وكان ابنه يأتى برفقته .

ـ لقد قيل لى ان والده كان رجلا قديسا ..

ـ نعم ، نعم .. ولكنه كان طائشا بعض الشيء ... والابن كما ترين أحسن منه بكثير ، فهو حين يلمسك ، يخيل للمرء أن يديه من القطيفة.

وسادت لحظة أخرى من الصمت ، قبل أن تقول هيلين :

ـ أنصحك بان تنفذي كل مايقوله لك ، فهو رجل عالم .. لقد انقذ ابنتي

فصاحت الام فيتو تقول في حماس :

ـ بكل تأكيد ، انني اثق فيه تماما .. لقد أعاد الحياة الى إبني الصغير الذي كان على وشك أن يموت ، ويمكنني ان اقول انه لا يوجد رجل آخر مثله . انني محظوظة لانني اقع على خير الناس واطيبهم ، واشكر الرب الكريم كل ليلة على ذلك ولا أنسى أحدا منكما ! انكما معي في صلواتي .. فليحميكما الرب وليمنحكما كل ماتتمنيانه ! ليغمركما بكنوزه وليحفظ لكما مكانا في جنته !

ورفعت العجوز جسمها قليلا عن الفراش ، وبدا عليها انها تتوسل الى الله ، وقد عقدت يديها على صدرها . وتركتها هيلين لحظات طويلة على هذا الوضع ، بل لقد ابتسمت من ثرثرة هذه العجوز .. ووعدتها هيلين وهي تنصرف بأن تحضر لها قبعة وثوبا ، في اليوم الذي يمن الله عليها بالشفاء وتغادر الفراش



وانشغلت هيلين بقية هذه الايام بالام فيتو ، فكانت تزورها بعد الظهر من كل يوم . وكانت تكن صداقة غريبة لطريق « ممر المياه » الذي كانت تقطعه كل يوم عند ذهابها الى المرأة العجوز . وكان هذا الطريق الذي لايزيد من أن يكون « حارة » موحشة يعجب هيلين بسبب جوه المنعش الرطب ، وهدوئه وبلاطه الكبير النظيف على الدوام بسبب الامطار التي كانت تغسله كلما انحدرت اليه من المرتفعات

وكانت هيلين وهي في طريقها الى الام فيتو تشعر باحساس عجيب في هذا الممر الشديد الانحدار الذي يخلو من الناس في أغلب الاحيان ، والذي لايكاد يعرفه الا بعض سكان الشوارع

المجاورة . وكانت أحيانا تغامر بالسير تحت قبو يخترق المنزل الموجود على ناصية شارع رينوار ، ثم تنزل - بخطوات حذرة - سلالم الدرج العريض الذى يمتد الى أسفل ، بما يوازى الطوابق السبعة لهذا المنزل الذى يمر فى محاذاته مجرى نهير جاف مجتلىء بالحصى.

وكانت بعض أشجار الحدائق الموجودة على الجهة اليمنى واليسرى تمد أغصانها وتسقط منها الاوراق فتشبه المطر ، كما كانت بعض النباتات المتسلقة تكسو جدران هذه الحدائق بمعطف سميك أخضر لايتيح للمرء أن يرى سوى أجزاء صغيرة من السماء الزرقاء ، تكسب ضوء النهار خضرة خفيفة هادئة ، وسكونا لا تقطعه الا بعض الضحكات التى تتناهى أحيانا من خلف أبواب هذه الحدائق التى لم ترها هيلين أبدا مفتوحة

وكانت هيلين ترى فى أحيان نادرة احدى السيدات العجائز وهى تصعد الى المرتفعات متكئة على الحاجز الحديدى اللامع المثبت فى الحائط الضخم على يمين الصاعد كى يساعده على الصعود ، أو بعض الصبية الذين يتسلون بالانزلاق ، ولكنها كانت دائما تحس بعزلة وانبهار ساحر

وكانت حينما تصل الى أسفل الدرج ترفع عينيها الى اعلى لتلقى نظرة على هذا المنحدر العتيف الذى خاطرت بالنزول منه منذ قليل . وكان هذا المنظر يسبب لها شعورا خفيفا بالخوف . واخيرا كانت تصل الى غرفة الام فيتو وهى لا تزال تحمل بين طيات ملابسها أثر السكون والجو المنعش الذى حملته وهى تمر بطريق ممر المياه . وكانت قد اعتادت على هذه الغرفة التى تشبه بؤرة للبؤس والشقاء .. فلم تعد تجرح مشاعرها . أنها الآن تتصرف فيها كما تشاء وكأنها فى منزلها ، فتفتح الكوة الصغيرة لتجدد الهواء ، وتنقل المنضدة كلما ضايقتها اثناء الحركة . ان هذه الغرفة الصغيرة بجدرانها المطلية بالجير وأثاثها الاعرج ، كانت تعود بها الى بساطة الحياة التى طالما حلمت بها فيما مضى .. أيام أن كانت فتاة شابة . وكان ما يبهرها بصفة خاصة ، هو هذا الانفعال الحنون الذي كانت تحس به فى هذا المكان .. فقد كان دورها كممرضة ، وانات المرأة

العجوز الدائمة ،وكل ما تراه حولها ، كل هذا كان يبعث في أوصالها رجفة كبيرة من الشفقة .. وانتهى بها الامر الى ان اصبحت تنتظر قدوم الدكتور ديبرل بصبر نافد :

وكانت بعد ان تسأله عن حالة الام فيتو تجلس قبالته ، ويتحدثان معا .. وكل منهما يتطلع الى وجه الاخر

كانت الكلفة ترفع بينهما بالتدريج .. وكانا يشعران بالدهشة وهما يكتشفان أن لهما ميولا متماثلة ، وفي احيان كثيرة كان كل منهما يفهم قصد الاخر بكلمة واحدة ، ويفيض قلباهما فجأة بنفس الشعور الفياض . ولم يكن هناك بالنسبة لهيلين شيء اجمل من هذا الاستلطاف الذي ينشأ بعيدا عن الظروف العادية ، والذي كانت تستسلم له دون مقاومة في شيء من الاسترخاء والحنان . لقد كانت تخشى الطبيب في بادىء الامر ، وكانت ستحتفظ أمامه — لو حدث انهما التقيا في مسكنها — ببرودها .. ولكنهما هنا بعيدان عن العالم ، يتقاسمان الكرسي الوحيد في الغرفة، ويسعدان بهذه الاشياء الخشنة القبيحة التي تقربهما من بعضهما وتثير في نفسيهما شعورا بالحنان .. ولم يمض أسبوع حتى كان كل منهما يعرف الآخر ، وكأنهما عاشا جنبا الى جنب سنوات طويلة ...

وكانت حالة الام فيتو تتحسن في بطء شديد حتى شك الطبيب في الامر ، واخذ يتهمها بأنها تدلل نفسها . كانت المرأة تتألم على الدوام ، وتظل راقدة على ظهرها .. واحيانا كانت تغلق عينيها كما لو كانت تريد ان تدعهما على حريتهما . وذات يوم بدا عليها وكأنها نائمة ، ولكن كان هناك ركن صغير من عينها يتلصص عليهما . واخيرا ، اضطرت المرأة الى مغادرة الفراش . وفي اليوم التالي احضرت لها هيلين الثوب والقبعة كما وعدتها .. وحينما وصل الدكتور ديبرل ، صاحت العجوز فجأة : « ياالهي ! .. لقد طلبت مني جارتي أن أراقب حساءها على النار وقد نسيت ذلك ! »

وخرجت العجوز على الفور واغلقت الباب من خلفها تاركة هيلين والطبيب بمفردهما . وفي بادىء الامر ، استمر الاثنان في حديثهما دون أن يلاحظا أن الباب كان مغلقا عليهما ، وكان الدكتور كيبرل يلح على هيلين في أن تنزل احيانا لتقضي فترة ما بعد الظهر في حديقته .

وكان يقول لها :

ـ يجب على زوجتى أن ترد زيارتك ، وحينئذ سوف تجدد لك الدعوة بالحضور الينا ... أن هذا يفيد ابنتك كثيرا

فقالت هيلين وهى تضحك :

ـ ولكننى لا ارفض المجىء ، كما اننى لم اطلب أن يأتى احد لاصطحابى فى موكب رسمى .. ولكننى أخشى أن يكون عندى بعض الفضول .. وعلى اية حال ، سوف نرى

وانهمكا فى الحديث بعض الوقت ،وفجأة قال الطبيب فى دهشة

ـ أين ذهبت العجوز ؟ لقد خرجت منذ ربع ساعة من اجل هذا الحساء !

حينئذ إدركت هيلين أن الباب كان مغلقا ، ولم يجرح هذا شعورها فى اول الامر ، وراحت تتحدث عن مدام ديبرل وتكيل لها المديح .. ولكنها رأت الطبيب يلتفت كثيرا ناحية الباب فأحست بالحرج ، وتمتمت بدورها تقول :

ـ حقا .. غريب جدا الا تعود !

وانقطع الحديث بينهما .. ولما لم تجد هيلين ما تقوله ، نهضت وفتحت الكوة الصغيرة ، وحينما التفتت خلفها تجنب كل منهما النظر الى الاخر . وتناهت الى سمعهما ضحكات بعض الصبية الصغار من خلال الكوة التى كانت تطل عليهما كقمر ازرق فى السماء . لقد كان الاثنان بمفردهما تماما ولم يكن معهما سوى هذه الكوة المستديرة . وخفتت الضحكات البعيدة ، فساد صمت يبعث على الاضطراب ويثير فى النفس القشعريرة . ان احدا بالتأكيد لن يأتى ليبحث منهما فى هذه «الصندرة» المفقودة . وأخذ ارتباكهما يزداد ... وحينئذ غضبت هيلين من نفسها وثبتت بصرها فى الطبيب .. فقال على الفور :

ـ اننى مرهق بالزيارات ، وبما انها لم تأت فسانصرف على الفور

وانصرف الدكتور ديبرل .. وسرعان ما دخلت الام فيتو وهى تطلق سيلا من العبارات وتقول : « آه ! اننى لا استطيع ان احمل جسمى ... الان فقد رحل هذا السيد العزيز ؟ اننى أعرف تماما

ان وسائل الراحة ليست متوفرة هنا . لكنما ملاكان من السماء حتى تقضيان وقتكما مع امراة بائسة مثلى ، ولكن الرب الكريم سيرد لكما كل ذلك .. آه ! لقد سرى الالم فى قدمى اليوم حتى انني اضطررت الى الجلوس على السلم ، ولم اعد اعرف هل انتما لا تزالان موجودين، أم لا .. لانه لم يكن يصدر عنكما أى صوت .. آه يا سيدتى ! لشد ما ارغب فى أن يكون عندى بعض المقاعد ، أو حتى مقعد كبير واحد ، فضلا عن ان مرتبة السرير فى حالة سيئة للغاية واشعر بالخجل حينما تحضران . ان البيت كله لكما وسالقى بنفسى فى النار اذا لزم الامر فى سبيلكما ، والله كريم يعرف انني صادقة ، وكثيرا ما أقول له ذلك .. آه ! يا الهى ! حقق كل رغبات السيد الطيب والسيدة الطيبة .. آمين ! »



وكانت هيلين تنصت اليها طيلة الوقت وهى تشعر بحرج كبير ، وكان وجه العجوز المتنفخ يثير فى نفسها القلق .. ولم تشعر أبدا بمثل هذا الضيق فى هذه الغرفة الضيقة من قبل ، وعندئذ اسرعت بالابتعاد .. وقد جرح شعورها الدعاء الذي كانت الام فيتو تبتهل به

وفى « طريق ممر المياه » زاد حزنها ، فقد كان هناك فى منتصف هذا الممر من الناحية اليمنى بئر مهملة يحيط بها سور حديدى ، وكانت هيلين تسمع منذ يومين كلما مرت بهذا المكان مواء قط فى قاع تلك البئر . والان ، وبينما هى تصعد الممر ، عاد القط الى موائه بطريقة تثير الشفقة وتنم عن الاحتضار . وحطم مواء الحيوان المسكين — الذى القى به فى البئر ليموت من الجوع موتا بطيئا — قلب هيلين . واسرعت الخطى وهى تحدث نفسها بأنها لن تستطيع لمدة طويلة أن تخاطر بعد ذلك بالسير فى هذا الطريق

كان هذا اليوم بالذات هو يوم الثلاثاء .. وفى تمام الساعة السابعة مساء ، وبينما كانت هيلين على وشك أن تنتهى من حياكة كم صغير ، دق جرس الباب الدقتين المعهودتين .. ففتحت روزالى الباب وهى تقول :«ان السيد القس هو الذى وصل أولا اليوم..» وما لبثت أن اضافت تقول بصوت اكثر ارتفاعا : « آه ! وها هو



ذا السيد رامبو ! » .

في هذا المساء ، انقضى العشاء في جو مرح للغاية ، وكانت جان تبدو أحسن صحة بكثير ، واستطاع الاخوان أن يحصلا من والدتها على الاذن بأن تأكل الصبية قليلا من السلاطة التي كانت تحبهـا كثيرا ، على الرغم من أمر الدكتور بودان الصريح بمنعها من أكلها . وحينما انتهت من تناولها ، تعلقت الصبية برقبة والدتها وتمتمت تقول : « أرجـو يا والدتي ان تأخذيني معك غـدا عنـد السـيدة العجوز »

ولكن القسيس والسيد رامبو نهراها على ذلك ، فقد كان من المستحيل أن تذهب الصبية لزيارة أحـد من البؤساء .. لانهـا شديدة الحساسية ولا تعرف كيف تتصرف هناك . وفي المرة الاخيرة ــ عقب زيارة لأحد الفقراء ــ فقدت وعيها مرتين خلال ثلاثة أيام . وكانت الدموع تسيل من عينيها حتى أثناء نومها

واخذت جان تكرر قولها :

ــ كلا ، كلا .. انني أعدك بالا ابكي يا أماه »

وحينئذ قبلتها أمها وقالت :

ــ لا جدوى من ذلك يا عزيزتي ، فالمرأة العجوز صحتها الان جيدة ، ولن اخرج بعد الآن .. انني سأبقى معك طوال النهار



الفصل الرابع

الأرجوحة

في الاسبوع التالي ، قامت مدام ديبرل برد الزيارة لهيلين ، وابدت زوجة الطبيب لطفا وظرفا كبيرين .. وحينما همت بالانصراف، قالت لهيلين وهي تقف على عتبة الباب :

ـ تذكري ماوعدتني به .. انك ستنزلين الى الحديقة مع جان في أول يوم يكون الطقس فيه جميلا

وابتسمت هيلين ، واجابتها بقولها :

ـ نعم ، نعم .. لقد اتفقنا على ذلك

وبعد ذلك بثلاثة أيام ، نزلت هيلين مع ابنتها فعلا الى الحديقة بعد ظهر يوم صحو من أيام شهر فبراير ، وفتحت لهما زوجة البواب الباب الذي يوجد بين المنزلين ويوصل الى الحديقة . وفي نهاية الحديقة ، وجدتا مدام ديبرل وشقيقتها بولين تجلسان في غرفة مقفولة على النمط الياباني ، وهما تضيفان الى جوارهما بعض أشغال الابرة على منضدة صغيرة .. وصاحت جولييت تقول :

ـ آه ! كم هذا لطيف منك !.. تفضلي بالجلوس هنا .. أدفعي هذه المنضدة قليلا يابولين .. اليس الجو لايزال رطبا قليلا ؟ اننا نستطيع من هنا أن نراقب الاولاد جيدا وهم يلعبون .. هيا أيها الاطفال ، اذهبوا للعب .. واحترسوا تماما من الوقوع ..

كانت لاحد جوانب هذه الغرفة الواح زجاجية متحركة ، اذا فتحت كشفت عن الحديقة كلها .. فتبدو للناظر كما لو كان يراها من داخل خيمة مكشوفة . وكان بالحديقة حوض للزهور ..

ولها سور حديدى بسيط يفصلها من شارع فينوز ، وكان هناك ستار من الشجيرات الخضراء يرتفع بحيث لايستطيع السائر فى هذا الشارع أن يرى شيئا مما يجرى داخل الحديقة ، فضلا من انواع كثيرة من النباتات المتسلقة التى تلتف فى احكام حول السور الحديدى . وحتى فى فصل الشتاء ، كانت بعض هذه النباتات المتسلقة التى لاتتساقط أوراقها بفعل البرد ، وكذلك الاغصان المتشابكة بعضها ببعض ، كافية لمنع الرؤيا

غير أن السحر الحقيقى للحديقة كان يكمن فى نهايتها .. حيث توجد أشجار عالية وارفة الظلال ، ومجموعة أخرى من أشجار البلوط الرائعة التى تحجب حائطا أسود اللون لمنزل يبلغ ارتفاعه بخمسة طوابق . وتوجد فى وسطها ارجوحة اخضر خشبها بفعل الرطوبة ، معلقة بين شجرتين من اشجار البلوط

كانت هيلين تنحنى قليلا لكى تتمكن من أن ترى على نحو افضل .. حين قالت مدام ديبرل بشىء من عدم الاهتمام :

ــ آه ! ان الحديقة عبارة عن علبة صغيرة ، فالاشجار نادرة جدا فى باريس .. لدرجة أن المرء يكون سعيد الحظ اذا كانت عنده نصف دستة من الاشجار !

لتمتمت هيلين تقول :

ــ كلا ، كلا .. انها رائعة جدا . هذا شىء ساحر بديع

كانت الشمس حينئذ تنثر فى صفحة السماء الشاحبة ذرات دقيقة بيضاء من الغبار ، كانت تبدو بين الاغصان العارية وكأنها مطر من اشعة الشمس ينهمر فى بطء شديد ، ويصبغ الاشجار بلون أحمر جميل . ولم تكن هناك زهرة واحدة فى الحديقة ، وانما كانت اشعة الشمس المرحة التى تنعكس على الارض هى التى تعلن قدوم الربيع

وقالت مدام ديبرل :

ــ ان الجو هنا لايزال حزينا بعض الشىء ، ولكنك سترين فى شهر يونيو اننا فى عش حقيقى .. ان الاشجار تمنع الجيران من التجسس .. ومن ثم تكون وكأننا فى منزلنا تماما

وقطعت مدام ديبرل كلامها ، ونادت قائلة :

ـ لوسيان ! لاتلمس النافورة من فضلك !
كان الصبي الصغير الذى يرافق جان ليريهـا جميع أركان الحديقة ، قد وقف فى هذه اللحظة أمام النافورة تحت السلم الذى يوصل الى الشرفة .. وهناك فتح الصنبور ومد طرف حذائه ذي الرقبة ليبلله بالماء ، وكان يحب كثيرا هـذه اللعبة . ووقفت جان تنظر اليه ، وهو يفعل ذلك وقد بدت عليها أمارات الاهتمام

وقالت بولين وهى تنهض من مكانها :
ـ انتظرى .. سأذهب لأعلمه الهدوء
فمنعتها جولييت ، وهى تقول :
ـ كلا ، كلا .. انك أكثر طيشا منه . لقد كان يبدو عليكما بالأمس أنكما اخذتما حماما .. ان من الغريب حقا الا تستطيع فتاة كبيرة مثلك أن تظل جالسة لمدة دقيقتين !
واستأنفت مدام ديبرل كلامها قائلة :
ـ هل تسمعنى يا لوسيان ؟.. اقفل الصنبور فى الحال !
واستولى الذعر على الصبى واراد ان يطيع الامر ، ولكنه ادار يد الصنبور بعكس الاتجاه المطلوب فسال الماء بعنف أكثر ، واطار صوت الماء صوابه فى نهاية الامر ، فتقهقر الى الخلف والماء يندفع عليه حتى كتفيه
واستمرت والدته تكرر أمرها ، وقد تورد خداها لكثرة ماتدفق فيهما من الدم : « اقفل الصنبور فى الحال ! »
وفى هـذه اللحظة ، اقتربت جان من النافورة فى حذر بالغ وتقدمت من الماء الثائر ، وكان الصبى قد انفجر فى البكاء لشدة خوفه منه . ووضعت جان جونلتها بين ساقيها ومدت يديها بعد أن شمرت كمها بسرعة واغلقت الصنبور دون أن يبللهـا اى رذاذ من الماء ، وهكذا انقطع فوران الماء فى الحال . وفجأة ، كف لوسيان فى غمرة دهشته ـ عن البكاء ، وقد استولى على نفسه شعور عميق بالاحترام نحو جان ، ورفع عينيه الواسعتين الى الفتاة .. وقد انحبست فى مآقيهما الدموع
واستأنفت مدام ديبرل كلامها قائلة ، وهى ترخي جسمها كما

لو كان التعب قد حطمها :
ـ ان هذا الولد يثيرني الى حد الجنون !
ورات هيلين ان من واجبها أن تتدخل ، فقالت لابنتها :
ـ جان ! خذى لوسيان بعيدا .. والعبا فى الحديقة
وامسكت جان بلوسيان من يده ، وسار الاثنان فى ممرات الحديقة ، وهما يدوران حول العشب فى جد .. وكانت الصبية اطول منه بكثير حتى ان ذراعه كانت مشدودة الى أعلى . ويبدو أن لعبة الدوران حول العشب هذه راقت لهما كثيرا واعطت لشخصيتهما أهمية كبيرة ، فقد كان واضحا أنها تشغلهما تماما . وكانت جان تسير بعينين شاردتين وكأنها سيدة كبيرة السن .. أما لوسيان فلم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من المخاطرة بالقاء نظرة على رفيقته من لحظة لأخرى .. ولم يحدث أن تبادلا معا كلمة واحدة
قالت مدام ديبرل ، وهى تبتسم فى هدوء :
ـ انهما طفلان غريبان ، وينبغى أن نقول عن جان انها لطيفة ومطيعة جدا .. وجادة للغاية ..
فاجابت هيلين تقول :
ـ نعم ، حينما تكون مع الآخرين ... ان لها ساعات مريعة ، ولكن بما أنها تعبدنى فهى تحاول دائما أن تكون عاقلة كى لاتؤلمنى
وتحدثا بعد ذلك عن الاولاد ، وعن سرعة نضوج البنات .. وانه لا داعى للظن بأن لوسيان ضعيف الذكاء ، فلن ينقضى عام واحد حتى يعرف كيف يسلك ، ويصبح صبيا قويا ممتازا
وعندما بدات مدام ديبرل تتحدث عن السيدة التى تقطن فى « السلاملك » المجاور ، قالت لشقيقتها :
ـ اذهبى الى الحديقة دقيقة واحدة يابولين
وخرجت الفتاة فى هدوء وجلست تحت الاشجار ، فقد اعتادت على أن تطرد كلما تحدثوا أمامها فى أمر خطير
واستطردت جوليت تقول :
ـ لقد كنت بالامس اطل من النافذة ، وشاهدت هذه المراة

عارية تماما ... ! انها لا تهتم حتى بأن تسدل الستائر .. احقنا انها ليست على اى جانب من الادب أو الحياء ! واخشى أن يشاهد الاولاد ذلك ...

كانت جولييت تتحدث بصوت خافت ، وقد بدا على وجهها الضيق والخجل .. ومع ذلك كانت هناك ابتسامة صغيرة ترتسم على ركن فمها . وفجاة صاحت تنادى بصوت مرتفع :

ــ بولين ! يمكنك الان أن تعودى ..

كانت بولين تقف تحت احدى الاشجار ، وهى تنظر بغير اكتراث الى الفضاء منتظرة أن تنتهى شقيقتها من قصتها ..

وعادت بولين لتجلس من جديد على مقعدها .. بينما استمرت جولييت فى حديثها قائلة :

ــ ألم تلاحظى انت أى شىء يا سيدتى ؟

فاجابت هيلين تقول :

ــ كلا .. فنوافذى لا تطل على مسكنها

وعلى الرغم من انه كانت هناك ثغرة فى الحديث بالنسبة للفتاة الشابة ، الا انها أخذت تنصت بوجهها الابيض العذرى كما لو انها ادركت كل شىء



وعادت مدام ديبرل الى شغل الابرة ، ولم تكن تعمل اكثر من غرزتين فى كل دقيقة .. وأرادت هيلين أن تشغل نفسها بشىء فاستأذنت فى أن تحضر شيئا تطرزه هى الاخرى . واستحوذ عليها شعور خفيف بالضيق ، فالتفتت حولها وراحت تفحص الغرفة ذات الطراز اليابانى

كانت جدران الغرفة مبطنة بأقمشة عليها رسومات موشاة بالذهب لبجع طائر وازهار وفراشات بهيجة الالوان ، وكذلك مناظر طبيعية لقوارب زرقاء تسبح فى انهار صفراء . وكانت هناك مجموعة من المقاعد المصنوعة من الخشب والحديد ، واصص للزهور .. أما على أرض الغرفة فقد فرشت حصر رقيقة جميلة وكان فوق الاثاث عدد كبير من التحف البرونزية الصغيرة والتمائم واللعب الغريبة ذات الالوان الزاهية . وفى نهاية الغرفة ، كان فى وسع المرء أن يرى تمثالا خرفيا لبوذا عارى البطن مثنى الساقين ،

وكان يشع منه مزح كبير ويهز رأسه بعنف عند أول لمسة.
وصاحت بولين تقول وقد رأت هنيلين تثبت بصرها على هذا التمثال :
ـ انه تمثال قبيح للغاية .. أليس كذلك ؟
ثم التفتت الى شقيقتها ، وأضافت تقول :
ـ هل تدرين يا أختاه أن كل الاشياء التى اشتريتها زائفة ؟ وان ماليينون يسمى تحفك اليابانية هذه « سوق الكانتو بعشرة صلديات ؟ » . وبهذه المناسبة فقد قابلتمالينيون الجميل ، وكانت معه سيدة .. آه .. انها فلورانس الصغيرة من مسرح «الفارتييه»
فسألتها جولييت بشغف :
ـ اين كان ذلك .. لكى اغيظه ؟
فقالت بولين
ـ فى البوليفار ... ألن يحضر اليوم ؟
ولم يدم الحديث بين الاختين اكثر من ذلك ، فقد استولى القلق على السيدتين لاختفاء جان ولوسيان ، فأخذتا تناديان عليهما .. وسرعان ما جاءهما الرد : « نحن هنا » !
لقد كانا يجلسان وسط العشب نصف مختبئين خلف شجرة ضخمة
وقالت السيدتان :
ـ ماذا تفعلان ؟
فقال لوسيان :
ـ كنا نستريح فى غرفتنا
ونظرت السيدتان اليهما برهة وهما سعيدتان ، وكان يبدو على الطفلين انهما مسروران باللعب ، لقد نشأت الالفة بينهما واصبحا يتحدثان معا ويقطعان العشب لاعداد طعام الغداء . وكانت علامات الاهتمام بادية على جان ، وتكرر باقتناع أنها ولوسيان موجودان فى سويسرا الان ، وانهما على وشك أن يخرجا للانزلاق على الجليد ، ويبدو أن هذا كان يثير الدهشة والذهول فى نفس الصبى
وقالت بولين فجأة :

ـ آه ! هاهو ذا !

والتفتت مدام ديبرل فلمحت ماليניون ينزل على سلم الشرفة الذى يوصل الى الحديقة ، فانتظرت الى أن وصل وحيا .. ثم ابتدرته قائلة بمجرد ان رأته يجلس :

ـ حسنا ! انك لطيف حقا لانك تقول عنى فى كل مكان انه ليس عندى سوى تحف زائفة !

فأجاب مالينيون فى هدوء :

ـ آه ! نعم ، تعنين هذه الغرفة الصغيرة ؟ ان تحفها زائفة بكل تأكيد ، وليس فيها ما يجدر بالمرء أن ينظر اليه

واحست مدام ديبرل بحرج شديد ، فقالت :

ـ كيف ؟ وماذا عن تمثال بوذا ؟

فقال مالينيون :

ـ كلا ، فنجوها كله يعبر عن نزعة برجوازية وينقصه الذوق .. انك لم توافقى على أن أقوم باعدادها ...

فقاطعته قائلة وقد احمر وجهها من شدة الغضب :

ـ الذوق ؟ فلنتحدث اذن من ذوقك .. لقد شاهدوك تسير مع سيدة ....

فسألها وقد بدت الدهشة فى قسمات وجهه :

ـ أية سيدة ؟

فقالت جولييت :

ـ انه اختيار جميل احب ان أهنئك عليه .. انها فتاة تأسر باريس بأسرها !

وصمتت لحظة حين وقع بصرها على بولين .. وقد نسيت وجودها ، واخيرا قالت :

ـ بولين ! اذهبى اذن .. دقيقة واحدة الى الحديقة

فقالت الفتاة الشابة فى شىء من التمرد :

ـ آه ! كلا .. فهذا شىء متعب فى النهاية ، انكم تزعجوننى دائما

فعادت جولييت تقول لها فى قسوة :

ـ اذهبى الى الحديقة

وذهبت الفتاة الشابة وهى تحتج ، وما ان سارت بضع خطوات

حتى التفتت وراءها واضافت تقول : « أسرعوا اذن على الاقل »



وبمجرد أن ابتعدت الفتاة ، شنت جوليت هجومها على مالينيون من جديد : فكيف يتفق لشاب ممتاز مثله أن يظهر أمام الناس مع فلورانس هذه القبيحة الشكل التى يبلغ عمرها اربعين عاما على الاقل ، والتى يرفع معها الكلفة ، عازفو الفرقة الموسيقية جميعا منذ ليلة الافتتاح !

وصاحت بولين تقول فى غضب وهى تمشى تحت الاشجار :

ــ هل انتهيتم ؟ اننى متضايقة !

ولكن مالينيون راح يدافع عن نفسه .. فهو لم يعرف فلورانس هذه ولم يتحدث اليها قط . ومن الممكن ان يكونوا قد شاهدوه مع سيدة أخرى لانه يخرج أحيانا فى صحبة زوجة أحد أصدقائه ، ومن ناحية أخرى فمن هو ذلك الشخص الذى رآه وهو يسير مع فلورانس ؟ .. لابد أن يكون هناك شهود وبراهين ...

وقالت مدام ديبرل تحدث بولين بصوت مرتفع :

ــ بولين ! الم تشاهديه مع فلورانس ؟ اليس كذلك ؟

فأجابت بولين تقول :

ــ نعم .. نعم .. فى البوليفار أمام محل بينيون

وحينئذ صاحت مدام ديبرل تقول بانتصار ، وقد رأت ابتسامة مالينيون التى تنم عن الارتباك :

ــ يمكنك أن تعودى الآن يابولين .. لقد انتهينا

كانت مع مالينيون تذكرة « لوج » لليوم التالى فى مسرح « الفولى دراماتيك » فقدم هذه التذكرة فى لباقة وظرف الى مدام ديبرل دون أن يبدو عليه أنه مغتاظ ..

وأرادت بولين ان تعرف اذا كان يمكنها أن تشاهد هذه المسرحية ، ولكنها حين رأت مالينيون يضحك وهو يهز رأسه بالنفى .. اندفعت تندد بسخافة الأمر ، وتطالب الكتاب بان يؤلفوا مسرحيات تناسب الفتيات الشابات ، ذلك لانهم كانوا لا يأذنون لها الا بمشاهدة مسرحية « السيدة البيضاء » والمسرح الكلاسيكى



كانت السيدتان اثناء ذلك قد كفتا عن مراقبة الاولاد ، وفجأة

انطلق لوسيان يصرخ صرخات مرعبة . وصاحت هيلين قائلة :
ـ ماذا فعلت له ياجان ؟

ـ لاشيء يا أماه .. انه هو الذى ألقى بنفسه على الأرض

والواقع أن الصغيرين كانا يريدان السفر الى ثلوج سويسرا الشهيرة .. وبما أن جان أعلنت أن الناس لابد أن يصلوا اليها عن طريق الجبال .. فقد كان عليهما أن يرفعا أقدامهما عاليا جدا حتى يتخطيا الصخور ، فما كان من لوسيان الذى لهثت أنفاسه بسبب هذا التمرين الا أن تعثر وسقط على الارض وسط حوض مزروع ، ولما وجد الصبى نفسه ملقى هكذا على الارض خدشت كبرياؤه فانفجر فى البكاء

وعادت هيلين تقول :

ـ ساعديه على النهوض

وعادت جان ثائرة .. فها هى ذى قد اكتشفت أن هذا الصبى الصغير سيىء التربية ولا يعرف كيف يلعب ، فضلا عن أنه سيلوث لها ملابسها ، وكانت وهى عابسة الوجه أشبه ماتكون بدوقة محرجة ! .. وطلبت جولييت من شقيقتها أن تمسك لوسيان وتساعده على النهوض وقد نفد صبرها أمام صيحاته ، وحينئذ أسرعت الفتاة التى لم تكن تطمع فى شيء أكثر من ذلك وارتمت على الارض الى جوار الصبى تريد انهاضه ، ولكنه تمرد عليها واستمر فى البكاء

وأخيرا ، جذبته بولين من ذراعه وأوقفته على قدميه وهى تقول :

ـ الزم الصمت أيها الثرثار .. اننا سنذهب لنتأرجح فى الحال

وكف الصبى عن الصراخ على الفور .. أما جان فقد زال عنها طابعها الجاد بمجرد أن سمعته ذكر الارجوحة ، وبدا على وجهها سرور عظيم ، وجرى ثلاثتهم الى الارجوحة ، وأسرعت بولين بالجلوس على خشبتها وهى تقول :

ـ هيا ادفعونى أيها الاولاد

وأخذا يدفعانها بكل مافى أيديهما الصغيرة من قوة ، ولكن وزنها كان ثقيلا عليهما فاكتفيا بأن أخذا يهزانها فى انهاك ، ولكن الفتاة

راحت تكرر أمرها قائلة :

ـ ادفعا بقوة ! .. آه ! ياللصغار الاغبياء !

وفي غرفة الحديقة ، كانت مدام ديبرل تشعر برجفة خفيفة ، فقد كانت تحس بأن الجو ليس دافئا الى حد كاف على الرغم من الشمس الجميلة البازغة ، فاستأذنت من مالينيون أن يحضر لها « برنصا » أبيض من الكاشمير كان معلقا على مقبض نافذة ، وجاء مالينيون « بالبرنص » ووضعه فوق كتفيها

وأخذ الاثنان يتحدثان في غير كلفة عن أشياء كثيرة لم تكن هيلين تهتم بها ، ولما كانت تخشى أن توقع بولين الاطفال على الرغم منها ، نهضت وذهبت الى الحديقة تاركة جولييت ومالينيون يناقشان موضة جديدة للقبعات كانت تستحوذ على اهتمامها

وحينما أبصرت جان والدتها قادمة ، اقتربت منها ، وتمتمت تقول في توسل شديد :

ـ آه ! يا أماه ... يا أماه ...

فقالت لها هيلين وقد ادركت رغبتها على الفور :

ـ كلا ، كلا .. انك تعرفين أن هذا ممنوع عليك

كانت جان مولعة بالاراجيح ، لانها تشعر وهي تتأرجح كما لو كانت « عصفورا » على حد قولها ، وكانت الرياح التي تهب على وجهها ، والهبوط المفاجيء ، والطيران المستمر جيئة وذهابا .. كل هذا كان يحدث لها انفعالا لذيذا يجعل الصبية تعتقد اعتقادا حقيقيا بانها عصفور يطير الى السحاب . غير أن هذا كله كان ينتهي دائما نهاية سيئة ، فقد وجدوها ذات مرة وقد فقدت وعيها وتشبثت بحبال الارجوحة وعيناها مفتوحتان اللتان اقتصاهما ، ومشدودتان الى الفضاء . وفي مرة أخرى سقطت من الارجوحة وقد تصلبت كعصفور أصابته طلقة من الرصاص !

واستمرت جان تتوسل الى والدتها بقولها : « آه ! دقيقة واحدة ! دقيقة واحدة فقط يا أماه ... » .

وأجلستها والدتها ـ كي تتخلص من الحاحها ـ على لوح الارجوحة الخشبي ، فأضاء وجه الصبية في تلك اللحظة ، وسرت في معصميها العاريين رعدة خفيفة من أثر المتعة .. وتمتمت تقول

فى توسل لما رأت والدتها تدفعها فى بطء شديد :
ــ بقوة اكثر .. بقوة أكثر يا أماه !
فصاحت هيلين تقول وهى ترفع جان بين ذراعيها :
ــ كفى !
فعادت جان تقول :
ــ اذن تأرجحى انت .. أرجوك يا اماه
كانت الصبية تحب أن تنظر الى امها وهى تطير فى الهواء ، وكانت تجد فى ذلك متعة تفوق متعتها حين تكون هى نفسها على الارجوحة ..
وقالت هيلين لابنتها وهى تضحك :
ــ ولكن .. من سيدفعنى ؟
وفى هذه اللحظة ، أقبل السيد رامبو تقوده زوجة البواب .. وكان قد مر على هيلين فى مسكنها ، فلما لم يجدها فكر فى أنها ربما كانت هنا . وأظهرت مدام ديرل انها متأثرة لزيارة هذا الرجل الطيب ، ولكنها سرعان ما انهمكت من جديد فى مناقشة عنيفة مع مالينيون ...
وصاحت جان تقول وهى تقفز حول هيلين :
ــ ان صديقى الطيب هو الذى سيدفعك !
فقالت هيلين فى قسوة مفتعلة :
ــ هل لك أن تسكتى ؟! .. اننا لسنا فى منزلنا
وحينئذ صاح السيد رامبو مخاطبا هيلين :
ــ يا الهى ! اننى أضع نفسى تحت تصرفك اذا كان هذا يسرك
وبدا على هيلين انها تستسلم للاغراء ، فقد تذكرت أنها كثيرا ما كانت تتأرجح فى سنوات صباها ساعات طويلة ، وملأت ذكرى هذه المسرات البعيدة نفسها برغبات مكتومة
وجلست بولين مع لوسيان على حافة العشب ، وتدخلت فى الحديث قائلة بلهجة فتاة متحررة :
ــ نعم .. نعم . ان السيد سيدفعك حالا ، وسوف يدفعنى أيضا بعد ذلك .. أليس كذلك ياسيدى ؟
وقررت هيلين ان تصعد الى الارجوحة ، فقد كان شبابها

الكامن يتفجر فى سذاجة جميلة فى هذا اليوم الذى كانت تبدو فيه مرحة بسيطة ، وكأنها تلميذة صغيرة ، خاصة .. وان طبيعتها كانت خلوا من اى حياء مصطنع

وقالت هيلين ضاحكة انها لاتريد أن تكشف من فخذيها ، وطلبت قطعة من الدوبارة ربطت بها ذيل ثوبها حول ساقيها .. ثم وقفت على لوح الارجوحة الخشبى وقد مدت ذراعيها عرضا ، وصاحت تقول فى مرح وهى تمسك بالحبلين :

ــ هيا ياسيد رامبو ! على مهل فى بادىء الامر !

وعلق السيد رامبو قبعته على احد الاغصان وقد اضاءت وجهه المريض الطيب ابتسامة ابوية لطيفة .. وبعد أن تأكد من صلابة الارجوحة ومتانة الحبال ، ألقى نظرة على الاشجار وقرر أن يدفع هيلين اولا دفعة خفيفة ، وكانت هيلين قد خلعت ثياب الحداد لاول مرة بعد وفاة زوجها وارتدت ثوبا رماديا

وقفت هيلين على خشبة الارجوحة التى بدات تتحرك فى بطء وهى تكاد تلمس الارض .. وحينئذ مد السيد رامبو ذراعيه الى الامام وأمسك باللوح الخشبى ودفعة بقوة أكثر ، واخذت هيلين ترتفع الى أعلى وهى لاتزال تحتفظ بطابعها الجاد ، ولم تكن اية ثنية من ثوبها قد تحركت ، ولكن احدى ضفائرها بدات تتفكك ..

وقالت هيلين للسيد رامبو :

ــ هيا .. هيا !

فدفعها السيد رامبو دفعة قوية مفاجئة رفعتها الى مستوى اعلى ، وسرعان ما اخذت هيلين تهبط وترتفع فى سرعة كبيرة حتى لم يعد يستطيع المرء أن يميزها بوضوح ، واصبحت عيناها تروحان ذهابا وجيئة وهما تلمعان كالنجوم ، وعلى الرغم من انها ربطت ثوبها بالدوبارة .. أخذ هذا الثوب يرفرف كاشفا عن بياض ساقيها .

وكانت هيلين كلما ارتفعت الى اعلى حيث الهواء والشمس ، تشعر بان فتحتى انفها تزدادان اتساعا وكانهما تريدان أن تشربا الهواء ، وبان صدرها قد أصبح طليقا كما لو كانت تعيش فى موطنها ، وصاحت تقول :

ــ هيا .. هيا ياسيد رامبو !

واستجمع السيد رامبو كل قوته ودفعها في دفعة قوية جعلتها تزداد ارتفاعا ، وأطلق الحاضرون صيحة استحسان شديدة ، واحمر وجه السيد رامبو وتندى جبينه بالعرق ..

وصاحت جان تقول وقد أسكرتها النشوة :

ـ آه .. يا أماه ! آه .. يا اماه !

كانت الصبية الصغيرة جالسة على المشب تنظر الى والدتها وقد ضمت قبضتيها الصغيرتين الى صدرها ، وراح رأسها يتابع الارجوحة وهي تعلو وتهبط بحركة منتظمة . وصاحت جان تقول :

ـ بقوة اكثر .. بقوة اكثر يا اماه !

ودفع السيد رامبو الارجوحة دفعة هائلة ، فارتفعت في الفضاء حتى أصبحت تلمس غصون الاشجار . وكان في وسع المرء أن يسمع ثوب هيلين وهو يهدر كالرعد ، وكانت هيلين وهي تهوى في هبوطها تغلق عينيها في سرور وتلقي برأسها في استسلام الى الوراء، وسرعان ما تحملها قوة الدفع من جديد الى أعلى لتحلق في شمس فبراير الشقراء التي ينساب منها غبار كالذهب .. ان هذا الصعود والهبوط هما متعتها التي تسبب لها الدوار

وضمت جان يديها الصغيرتين الى صدرها بقوة اكثر ، وقد بدت لها والدتها كقديسة تطير الى الجنة ، واخذت الصبية تتمتم من حين لآخر بصوت متقطع النبرات :

ـ آه ! يا أماه ... آه ! يا أماه !

وكان مالينيون ومدام ديبرل قد اخذا يهتمان بما يدور حولهما . وتقدم مالينيون ناحية الارجوحة وقد رأى شجاعة هيلين ، بينما صاحت مدام ديبرل تقول في ذعر :

ـ انني سأصاب بالاغماء بكل تأكيد ...

وصاحت هيلين قائلة ، وقد سمعت عبارة مدام ديبرل :

ـ اما انا فقلبي متين .. هيا يا سيد رامبو

وبقيت هيلين على هدوئها ، ولم يكن يبدو عليها انها مهتمة بالرجلين اللذين يقفان على الارض ، وكانت ضفيرتها قد انفكت والدوبارة قد تراخت وثوبها يرفرف كالعلم ..

وفجأة صاحت هيلين قائلة :

ـ كفى يا سيد رامبو .. !

كان الدكتور ديبرل قد ظهر لتوه على سلم الشرفة الذى يوصل الى الحديقة .. واقترب الطبيب . وبعد أن قبل زوجته بحنان ، ثم ابنه لوسيان ، وقف مبتسما ، وهو يرقب هيلين التى كانت تصيح قائلة :

ـ كفى .. كفى يا سيد رامبو

فقال الدكتور ديبرل مخاطبا هيلين :

ـ لماذا ؟ هل ازعجتك ؟

ولم تجب .. وكانت الارجوحة لا تزال تندفع بكل قوتها حاملة هيلين ، ووقف الطبيب مبهورا أمام روعتها وهى تروح وتجىء هكذا بقامتها الطويلة الرائعة التى تشبه تماثيل الاغريق . واخيرا قفزت من الارجوحة فى غضب ، بينما كان الجميع يصيحون فى صوت واحد :

ـ كلا ! انتظرى .. انتظرى ..

وصدرت من هيلين أنة ألم مكتوم ، فقد وقعت على ممر الحديقة المرصوف بالحصى ، ولم تستطع النهوض ..

وقال الدكتور ديبرل ، وقد شحب وجهه :

ـ يا إلهى ! كان ينبغى أن تراعى الحذر !

وتزاحم الجميع حولها ، وأخذت جان تنتحب بشدة حتى اضطر السيد رامبو أن يحملها بين ذراعيه . وسأل الدكتور ديبرل هيلين فى اهتمام :

ـ انها ساقك اليمنى .. اليس كذلك ؟ الا تستطيعين النهوض؟

وظلت هيلين شاردة لا تجيب ، فعاد الطبيب يسألها :

ـ هل تتألمين ؟

فقالت هيلين فى صعوبة :

ـ انه الم مكتوم .. هنا فى ركبتى

وحينئذ أرسل الطبيب زوجته لتحضر له حقيبته وبعض الاربطة ، ثم عاد يكرر قائلا :

ـ يجب أن نرى .. يجب أن نرى .. لا شىء هناك بغير شك

وركع على ركبتيه الى جوارها .. وحينما مد يده ليلمس ركبتها رفعت جسمها عن الارض فى الم ، وضمت ثوبها بين ساقيها وتمتمت تقول :

ــ كلا .. كلا

فقال الطبيب :

ــ ومع ذلك يجب أن نرى ..

كانت هيلين ترتجف رجفة خفيفة ، فردت عليه بصوت اكثر خفوتا :

ــ لا أريد .. لن يكون هناك شيء

فنظر اليها الطبيب فى شيء من الدهشة فى باديء الامر ، وتقابلت اعينهما لحظة .. وبدا عليهما أنهما يقرآن ما كان يدور فى داخل نفسيهما ، وحينئذ اضطرب الطبيب فنهض ببطء ووقف الى جوارها دون أن يطلب احد منها مرة أخرى ان يفحص ركبتها

واشارت هيلين الى السيد رامبو براسها أن يقترب ، وهمست اليه فى اذنه تقول :

ــ اذهب لاحضار الدكتور بودان وأخبره بما حدث



ووصل الدكتور بودان بعد عشر دقائق .. وحينئذ وقفت هيلين على قدميها فى شجاعة تفوق طاقة البشر ، واتكأت على الدكتوربودان والسيد رامبو واتجهت الى مسكنها وابنتها تسير من خلفها وهى تنتحب

وعندئذ قال الدكتور ديبرل لزميله بصوت مرتفع :

ــ اننى فى انتظارك ، فتعال لتطمئننا ..

واخذ الحاضرون فى الحديقة يتكلمون عن الحادث .. وكان مالينيون يرى أن النساء يفكرن على نحو غريب حقا ، فلماذا بحق الشيطان قفزت هذه السيدة من الارجوحة ؟! أما الطبيب فقد ظل صامتا لا يتكلم ، وقد بدا عليه القلق

واخيرا جاء الدكتور بودان ، وقال للحاضرين :

ــ ان الامر ليس بخطير ، ولكنها ستضطر الى الجلوس على مقعد

طويل مدة خمسة عشر يوما على الاقل

وحينئذ ربت الدكتور ديبرل على كتف مالينيون ، فقد كان يريد ان تعود زوجته الى المنزل لان الطقس أصبح باردا ورطبا أكثر من اللازم ، ثم حمل ابنه لوسيان بين ذراعيه واخذ يغمره بالقبلات



الفصل الخامس

أمام النافذة

كانت النافذتان فى غرفة هيلين مفتوحتين على مصراعيهما ، وكانت باريس ترقد فى الهوة .. تحت هذا المنزل الذى يقع على أعلى مرتفع فى حى باسى ..

ودقت الساعة تعلن العاشرة .. وكان الوقت صباح يوم من أيام شهر فبراير الجميلة ، وكانت هيلين متمددةعلى مقعدها الطويل امام احدى النافذتين والرباط لا يزال يحيط بركبتها . انها لم تعد تتألم ؛ ولكنها منذ ثمانية أيام ،وهى تجلس هكذا لا تستطيع أن تفعل شيئا ...

ولما كانت لا تجد ما تفعله ، فقد تناولت كتابا كان ملقى بجوارها على المنضدة وراحت تقرأ فيه وهى التى كانت لا تقرأ على الاطلاق . وكان هذا الكتاب هو الذى تستخدمه كل ليلة لتحجب به ضوء المصباح الليلى الصغير ، وهو الوحيد الذى كانت قد أخذته منذ ثمانية عشر شهرا من المكتبة الصغيرة التى كان السيد رامبو قد زودها بمجموعة من الكتب الجادة ، لان القصص كانت فى نظره إعمالا تافهة حقيرة . كان هذا الكتاب هو رواية « ايفانهو » للسير وولتر سكوت ، وكانت هيلين قد احست بالضيق عند قراءتها للصفحات الاولى .. غير انها ما لبثت أن استولى عليها حب استطلاع غريب لمعرفة ما ستتطور اليه أحداثها ، وكانت كلما انتهت من قراءة عدة صفحات منها تحس بالحنان ، وحينئذ يسقط الكتاب من يدها على الارض ، وتثبت بصرها على الافق البعيد ، لتتأمل منظر باريس ، وقباب الكنائس .. « وسهام » الكاتدرائيات التى تمزق الضباب بقاماتها الرمادية الشاهقة

كانت هيلين منذ ثمانية أيام قد جعلت تسليتها أن تتأمل منظر باريس الممتدة أمامها ، وكانت لا تمل النظر اليها أبدا .. فقد كان منظرها عميقا ومتغيرا كالمحيط ، فهو ساذج في الصباح ، يكاد يشتعل في المساء ، ويصطبغ بمسرات وأحزان السماء التى يعكسها على صفحته

وحينما كان الكتاب يسقط منها ، فهذا يعنى أنها قد أصبحت في حاجة الى الفهم والانتظار ، ذلك انها كان يلذ لها ألا تشبع فضولها في الحال

كانت هيلين تظل مبهورة الانفاس وهى تفكر تفكيرا مطردا في الفارس ايفانهو الذى كانت تتنازع على حبه امرأتان : ربيكا الحسناء، وليدى روينا السيدة النبيلة ، وكان يخيل اليها أنها تشعر بالحب نحو هذه السيدة النبيلة . الحب ؟! .. كانت هذه الكلمة التى لا تنطق بها ترمجر وتتردد في نفسها .. حتى أنها كانت تدهش لها وتبتسم . ومن بعيد ، كانت كتل من الغيوم الشاحبة تملأ سماء باريس ، وتسير الهوينى بتأثير النسيم وكأنها قطيع ضخم من البجع، وكانت هناك كتل هائلة من الضباب تنتقل فوق صفحة نهر السين الى الناحية الشمالية ، فتجعل المدينة وكأنها بلد مسحور يراه المرء في الاحلام . وأخذت السيدة الشابة تتابع هذا المنظر بنظرة مفكرة . الحب .. الحب ! وابتسمت السيدة لحلمها الذى كان يرفرف من بعيد ..

وتناولت هيلين كتابها من جديد ، وأخذت تقرأ فقرة الهجوم على الحصن حين تعنى « ربيكا » بأيفانهو الجريح ، وتقص عليه أنباء المعركة التى كانت تتابعها من النافذة . وأحست هيلين بأنها تعيش في أكذوبة جميلة ، تتنزه فيها كما لو كانت تتنزه في حديقة مثالية فاكهتها من ذهب . وفي نهاية الفصل ، حين تبدى ربيكا حنانها للفارس النائم ، وهى متدثرة بالوشاح ، سقط الكتاب من يدها مرة أخرى .. وقلبها مفعم بالانفعال حتى أنها لم تستطع الاستمرار في القراءة ..

يا الهى ! هل كل هذه الاشياء حقيقة ؟ .. وأخذت هيلين تنظر وهى متمددة في مقعدها الطويل الى باريس العجيبة الغارقة في أشعة الشمس الشقراء ، وحينئذ تمثلت حياتها أمامها .. تحت تأثير هذه

الصفحات من الرواية ، فرأت نفسها وهى فتاة شابة في مدينة مرسيليا تعيش مع والدها موريه صانع القبعات في أحد المنازل بشارع دى بتيت مارى الحالك الظلمة . وكانت تنبعث من اناء الماء الكبير الذى يستعمله والدها في صناعة قبعاته رائحة رطبة حتى حينما يكون الطقس جميلا .. كما رأت والدتها المريضة على الدوام وهى تقبلها بشفتيها الشاحبتين دون أن تتكلم . انها لم تلمح قط شعاعا واحدا من الشمس ينفذ الى غرفتها وهى طفلة . وكان الجميع يعملون كثيرا من حولها ويربحون ، بجهد وتعب بالغين ، ما يكفى الاسرة .. كان هذا هو كل شىء ، وكانت الايام تتتابع في رتابة وعلى وتيرة واحدة .. ولم يبرز شىء خاص في هذا التتابع حتى وقت زواجها . فذات صباح ، كانت عائدة من السوق مع والدتها فصدمت سلتها المملوءة بالخضر شارل جرانجان . والتفت شارل وراءه ، ثم سار من خلفهما ، وكانت هذه كل قصة حبها .. وقد ظلت تصادفه في طريقها طيلة ثلاثة اشهر ، ولكنه كان خجولا .. فلم يجرؤ على أن يتقدم إليها ويكلمها



كانت حينئذ فى السادسة عشرة من عمرها ، وكانت فخورة بهذا المحب الذى ينتمى الى أسرة ثرية ، غير انها كانت تراه قبيحا .. وكثيرا ما كانت تضحك عليه وهى تنام في هدوء المنزل الرطب الكبير . ثم زوجوها منه ، وكان هذا الزواج يثير دهشتها . كان شارل يحبها حب عبادة ، وكان يركع على الارض في المساء ليقبل قدميها العاريتين وهى نائمة ، فكانت تبتسم له وتلومه لانه طفل كبير!

وبعد الزواج ، سارت حياتها الجديدة على وتيرة واحدة ، لمدة إثنى عشر عاما ، لا تتذكر خلالها هزة واحدة !.. ولكنها كانت سعيدة وهادئة بالرغم من انها كانت غارقة حتى أذنيها في همومها اليومية : هموم بيتها الفقير

كان شارل يقبل دائما قدميها المرمريتين ، وكانت تبدى له تسامحها وامومتها ، ولا شىء أكثر من ذلك .. وفجأة ، وجدت نفسها في فندق « دوفال » حيث مات زوجها أمام عينيها ، وبكت حينئذ مثلما بكت فى تلك الليلة من الشتاء حين ماتت والدتها .

ثم مرت الأيام ، حتى بدأت منذ شهرين تشعر من جديد انها سعيدة وهادئة جدا مع ابنتها ، ولكن هل هذا هو كل شيء ؟ اذن فما الذى يقوله هذا الكتاب الذى يتحدث من حب عظيم يضيء الحياة كلها ؟ الحب ؟!.. لماذا تعود هذه الكلمة الى نفسها بمثل هذا الطعم الجميل وهى تتابع من نافذتها ذوبان ضباب المدينة ؟ الم تحب زوجها ؟ الم تعن به كما يعنى المرء بطفل صغير ؟

واستيقظت فى نفسها ذكرى مؤثرة ... ذكرى والدها الذى شنق نفسه فى غرفته الصغيرة بعد وفاة زوجته بثلاثة أسابيع ، وكانت ثياب زوجته معلقة على الحائط لاتزال تنبعث منها بقية من تلك الرائحة التى كان يعبدها .. وكان الرجل متصلبا ومعلقا فى قطعة من هذه الثياب ..

وحدثت قفزة مفاجئة فى احلام هيلين .. فأخذت تفكر فى تفاصيل حياتها المنزلية الحالية ، وفى حسابات الشهر التى ناقشتها منذ قليل مع زوزالى ، واحست بأنها فخورة جدا بحسن نظامها . لقد عاشت اكثر من ثلاثين عاما فى كرامة مطلقة وثبات تام . وحينما نظرت الى ماضيها لم تجد فيه ساعة ضعف واحدة ، ورأت نفسها تسير بخطوات راسخة فى طريق واحد مستقيم .. حقا ان الايام يمكنها أن تجرى ، ولكنها سوف تستمر فى سيرها الهادىء دون أن ترتطم قدمها بعائق ، وكان هذا يطبعها بطابع من القوة ، ويجعلها تحتقر هذه الحياة الكاذبة ، حياة بطلات الروايات ، نعم .. أن الحياة الوحيدة الصحيحة هى حياتها التى تنقضى وسط سلام عريض ..

واخذ الضباب ينقشع من سماء باريس ، ولم يبق منه سوى غلالة رقيقة شفافة كالحرير . واستولى على نفس هيلين شعور مفاجيء من الحنان .. آه ! الحب .. الحب .. أن كل شيء حولها كان يعود بها الى هذه الكلمة الجميلة .. الحب

كانت هيلين مستغرقة فى التفكير حينما دخلت جان وهى تصيح فى مرح :

ـ اماه ! اماه ! انظرى

كانت الصبية تمسك فى يدها بباقة كبيرة من ازهار جميلة صفراء ،

واخذت تقص على والدتها وهي تضحك كيف انها ترقبت عودة روزالي حاملة سلة الخضروات لتفتش السلة ، فعثرت على هذه الباقة من الازهار .. ان التفتيش في هذه السلة كان متعتها..

واضافت جان تقول :

ـ انظري يا أماه .. ! انها كانت في قاع السلة .. هل تشمين رائحتها الجميلة ؟

كانت تنبعث من هذه الازهار البرية رائحة نفاذة تملأ جو الغرفة بعبيرها ، وجذبت هيلين ابنتها الى صدرها بحركة عاطفية ، فوقعت باقة الزهور على ركبتيها .. الحب ! الحب .. ! انها تحب ابنتها حبا كبيرا ، أفلا يكفيها اذن هذا الحب الذى كان يملأ حياتها حتى هذه اللحظة ؟ الا يكفيها هذا الحب الهادىء الخالد ..؟

وضمت هيلين ابنتها الى صدرها بشدة أكثر ، كما لو كانت تبعد عن نفسها أفكارا تهددها بالانفصال عنها ، واستسلمت لسيل من قبلات جان التي التصقت بكتفيها .. ولفت ذراعها الصغيرة حول خصرها ، وبقيت هكذا مرتكزة على صدرها ، بينما كانت باقة الزهور تنفث عبيرها بينهما

وبقيتا على هذه الحال مدة طويلة دون ان تتبادلا كلمة واحدة ، واخيرا قالت جان لوالدتها دون ان تتحرك :

ـ أماه ! هل ترين هذه القبة الذهبية التي هناك بجوار النهر .. ما هي يا أماه ؟

ونظرت هيلين لحظة وقد بدت عليها امارات التفكير ، وكانت القبة التي تعنيها جان هي قبة قصر الأنفاليد . واخيرا قالت هيلين لابنتها برفق :

ـ الواقع انني لا اعرف يا ابنتي

واكتفت جان بهذا الرد ، وساد الصمت بينهما من جديد ... ولكن الصبية ما لبثت ان عادت تسأل والدتها قائلة :

ـ وما تلك الأشجار القريبة ؟ انها جميلة جدا يا أماه !

وكانت الصغيرة تشير باصبعها الى جزء ظاهر من حديقة قصر التويللورى ..

فقالت الام :

ــ هذه الاشجار التي على اليسار ؟ لست ادرى أيضا يا ابنتى ..
فتمتمت جان تقول :
ــ آه !
وبعد لحظة من الصمت ، أضافت الام تقول وهى تمط شفتها السفلى بشكل جاد :
ــ الواقع أننا لا نعرف شيئا هنا يا ابنتي
وكانتا حقا لا تعرفان شيئا في باريس . لقد كانت المدينة تحت اعينهما طيلة ثمانية عشر شهرا دون أن تعرفا منها حجرا واحدا .. فهما لم تنزلا الى المدينة غير ثلاث مرات عادتا منها مصابتين بصداع من شدة الزحام
وعادت الصغيرة تقول فى الحاح :
ــ آه ! اذن لابد انك ستقولين لى ما هذا الزجاج الابيض ؟ انه كبير جدا ولابد انك تعرفينه ..
كانت جان تشير فى هذه المرة الى زجاج قصر الصناعة الابيض الضخم الذى يشبه الجليد ..
واجابت هيلين قائلة :
ــ لا شك فى انها محطة .. كلا ، اعتقد انها مسرح ..
ولكنها عادت تقول وهى تقبل شعر جان :
ــ الواقع اننى لست ادرى يا ابنتى
وحينئذ استمرت جان تنظر الى باريس دون أن تحاول ان تعرف المزيد ، وكان جميلا حقا ان تكون باريس راقدة أمامهما بكل ضخامتها وهما تجهلانها ، فكان مثلهما كمن يقف على عتبة باب عالم خالد مجهول ولكنه يرفض أن يدخل منه ! لقد كانت باريس كثيرا ما تثير قلقهما ، حينما ترسل عبيرها الدافىء الذى يبعث على الاضطراب ، ولكنها كانت فى هذا الصباح بريئة مرحة ، وكان لغزها الغامض لا ينفث فى وجهيهما سوى الحنان
وتناولت هيلين كتابها ، بينما ظلت جان تنظر الى المدينة وقد التصقت بوالدتها . والظاهر ان النسيم توقف .. حتى أن دخان مصنع الاسلحة كان يتصاعد مستقيما فى كتل خفيفة لا تلبث أن تتلاشى عاليا جدا فى الفضاء . واسترعى انتباه جان صوت حفيف

اجنحة حمام ابيض خرج لتوه من برج مجاور ، وكان يعبر الفضاء أمام النافذة واجنحته التى تشـــبه قطعا من الجليد المتطاير تكاد تحجب ضخامة باريس

ورفعت هيلين عينيها ، واستغرقت فى أحلامها من جـــــــديد ، فقد كان هذا الصباح الجميل ، وهذه المدينة الكبيرة ، والأزهار البرية التى تعطر ركبتيها .. كان ذلك كله يجعــل قلبهــا يذوب رويدا رويدا !



الفصل السادس

الجندي الصغير

كانت هيلين مشغولة باعادة ترتيب مكتبتها ذات صباح .. حين دخلت عليها جان ، وهى تقفز وتصفق وتصيح قائلة :

ــ أماه ! أماه ! هنا جندى ! جندى يا أماه !

فقالت هيلين فى شيء من الدهشة :

ــ ماذا ؟! جندى ؟ ماذا يريد ..؟

ولكن الصبية كانت فى حالة من الفرح الجنوني بحيث لم تستطع أن توضح اكثر من ذلك ، وعادت تقفز وتكرر قائلة :

ــ انه جندى .. جندى يا أماه !

كانت جان قد تركت باب الغرفة مفتوحا عند دخولها ، فنهضت هيلين .. ولشد ما كانت دهشتها حين لمحت عند المدخل جنديا صغيرا ..

وقالت هيلين تسأل الجندى :

ــ ماذا تريد يا سيدي ؟

واضطرب الجندى الصغير لدى ظهور هذه السيدة الشابة الرائعة الجمال ، والتى بدت ناصعة البياض فى « برنصها » المزين بالدانتيلا ..

ولمتم الجندى يقول فى خجل :

ــ عفوا .. معذرة ..

ولما لم يجد أى شيء آخر يقوله ، أخذ يتقهقر حتى ارتطم بالحائط .. ولما رأى السيدة واقفة تنتظر وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة لا ارادية خفيفة .. اخذ يفتش فى جيبه الايمن ، وأخرج منه منديلا ازرق ، طواه .. ثم اخرج قطعة من الخبز ..

وكان في كل مرة ينظر الى ما يخرجه ثم يدسه في جيبه من جديد..

وانتقل بحثه بعد ذلك الى جيبه الايسر ، فاخرج منه حبلا صغيرا ومسمارين قديمين ، وبعض الصور الملفوفة في ورقة صحيفة قديمة ، ثم اعاد هذه الاشياء الى جيبه بمجهود كبير ..

ووقف الجندي حائرا لحظة ، وهو يتمتم قائلا في قلق :

ـ عفوا .. معذرة

وفجاة ، وضع اصبعه على طرف انفه وانفجر في ضحكة تنم عن طيبة كبيرة ، ويبدو أنه قد تذكر أخيرا ... ففك ثلاثة أزرار من سترته ، ودس ذراعه في صدره حتى كوعه واخرج خطابا اخذ يهزه في عنف كما لو كان ينفض عنه الغبار ، ثم سلمه لهيلين ..

وقالت هيلين :

ـ هل انت واثق من انه لي انا ؟

وكان المظروف ، فعلا ، يحمل اسمها وعنوانها.. مكتوبين بخط قروي مزخرف غليظ . وتوصلت هيلين أخيرا الى فك رموز الخطاب بمجهود كبير ..

كان الخطاب من عمة روزالي ، وحامل الخطاب هو « سيفران لاكور » الذي جند في القرعة ، على الرغم من القداسين اللذين اقامهما له السيد القسيس ، وكانت العمة ترجو من هيلين السماح « للاولاد » بان يرى كل منهما الاخر أيام الآحاد ..

وطوت هيلين الخطاب ، وكانت اثناء قراءته قد رفعت بصرها الى الجندي مرتين ، فوجدته واقفا وظهره ملتصق بالحائط ، وكان يحرك شفتيه .. وكانه يؤيد كل جملة في هذا الخطاب الذي كان يحفظه عن ظهر قلب

وقالت هيلين :

ـ اذن انت « سيفران لاكور » ؟

فاخذ يهز راسه بشدة ..

فقالت هيلين :

ـ تفضل .. لا تمكث هنا

وسار سيفران حتى الباب .. وظل واقفا الى جواره ، وكانت قامته في مثل قامة روزالي تماما ، ولو انه كا ناقصر مما هو عليه

بسنتيمتر واحد لكـــان العفو قد شمله من التجنيد ، وكان أمـرد أحمر الشعر ، له عينان ضيقتان ووجه مستدير مغطى بالنمش ، يرتدى معطفا واسـعا ازرق اللون ، ويبدو عليه انه غريب الاطوار ، وكانت رائحة المحراث تكاد تنبعث من زيه العسكرى !

وسألته هيلين قائلة :

ــ هل غادرت اقليم بوس منذ ثمانية أيام ؟

فأجاب سيفران :

ــ نعم يا سيدتى ..

ــ هانتذا الان فى باريس .. الست حزينا لذلك ؟

فقال وهو يضحك :

ــ كلا .. كلا يا سيدتى

ويبدو أن الاطمئنان قد عاد الى نفسه بعض الشىء ، فأخذ ينظر فى ارجاء الغرفة وقد بدت عليه دهشـــة كبيرة لجـدرانها المبطنة بالقطيفة الزرقاء ..

وقالت هيلين :

ــ ان روزالى ليست هنا ، ولكنها على وشك أن تعـود .. لقد كتبت عمتها انك صديقها الحميم

ولم يجب الجنـدى الصـغير بشىء ، وانما طاطا راسه وهـو يبتسم ، واخذ يحك طرف السجادة بقدمه فى ارتباك ..

واستمرت هيلين تسأله :

ــ فى هذه الحالة ، ينبغى لك أن تتزوجها بعد انتهاء الخدمة .. أليس كذلك ؟

ــ بلا شك .. بلا شك .. اقسم لك ..

واحس سيفران بالراحة ازاء ترحيب السيدة الشابة ، فأخذ يقلب قبعته بين أصابعه وبدأ يحكى قصتهما :

ــ لقد حدث ذلك يا سـيدتى منذ زمن طويل ، وكنا فى طفولتنا نذهب معا لنسرق من الحقول .. فكانوا يضربوننا بالعصا ، وكانت عائلة لاكور وعائلة بيشون تسكنان فى نفس الزقاق جنبا الى جنب، فنشأت أنا وروزالى فى نفس الحـارة ، ولما توفى كل افراد أسرتها عاشت مع عمتها ..

وتحمس سيفران وسأل هيلين بصوت متردد :

ـ انها لا يمكن أن تكون قد اخبرتك بكل ذلك .. أليس كذلك؟

فأجابت هيلين وقد وجدت فى الامر تسلية كبيرة :

ـ نعم .. قل لى انت ..

فاستأنف سيفران يقول :

ـ كانت روزالى قوية للغاية بالرغم من صغر سنها . وذات مرة ، ضربتنى بيدها ضربة ظل ذراعى على اثرها مصابا بكدمة مدة ثمانية أيام .. نعم لقد حدث هذا فعلا . وفى العاشرة من عمرنا كنا نسير وكل منا يمسك بيد الاخر ..

وجال بخاطر هيلين ان ادخال جندى الى مطبخها أمر يمكن أن ينطوى على بعض المخاطرة ، ويبدو أن سيفران قد ادرك ما يدور فى خاطرها فكاد ينفجر فى الضحك ، غير أنه منع نفسه بدافع من احترامه للسيدة ، واضاف يقول :

ـ آه ! يا سيدتى .. يبدو انك لا تعرفينها جيدا ، فكم لكزتنى ، يا الهى .. ان الشبان يحبون الضحك كثيرا .. أليس كذلك ؟ اننى كنت اقرصها فى بعض الاحيان ،وحينئذ كانت تلتفت خلفها وتضربنى .. وكانت عمتها كثيرا ما تقول لها : « انصتى جيدا يا ابنتى .. لا تتركى احدا يداعبك بيديه ، فذلك يجلب سوء الطالع » . وكان القسيس يتدخل بيننا احيانا ، وربما كان هذا هو السبب فى ان صداقتنا قد دامت . وكان المفروض أن نتزوج بعد عملية « الفرز » ، ولكننى جندت .. هكذا سارت الامور ! وقالت لى روزالى انها ستعمل فى باريس كى تجمع مهرا خلال فترة الانتظار ، هذا كل شيء .. هذا كل شيء ..

كان سيفران ينقل قبعته من يد الى اخرى وقد انتفخت أوداجه ، ولكنه حين احس بصمت هيلين خيل اليه انها تشك فى اخلاصه لروزالى ، فصاح يقول فى حماس كبير :

ـ ربما كنت تعتقدين اننى سوف اخونها .. ولكننى اقسم لك باننى سأتزوجها ، وانا على اتم استعداد لان اوقع لك على هذا الكلام .. نعم ، اننى مستعد لان اوقع لك على ورقة فى الحال ..

واستحوذ على سيفران حماس بالغ ، فاندفع يمشى فى الغرفة

باحثا بعينيه عن ريشة ومحبرة ، وحاولت هيلين أن تهدئه دون جدوى ، فقد كان يكرر قائلا :

ــ نعم .. ان من الافضل أن أوقع لك على ورقة ..



كانت جان قد اختفت من جديد ، ولكنها اندفعت الى الغرفة في هذه اللحظة وهى تقفز وتصيح قائلة :

« روزالى ! روزالى .. لقد حضرت روزالى ! »

وتناهى الى سمعهما صوت روزالى وهى تصعد المدرج لاهثة .. وتقهقر سيفران الى ركن الغرفة وهو يضحك فى صمت ، وكانت عيناه الضيقتان تلمعان بمكر ريفى خفيف ..

ودخلت روزالى الى الغرفة فى غير كلفة كى تعرض الخضروات على سيدتها كعادتها ، وهى تقول :

ــ أنظرى يا سيدتى .. ها هو ذا « القرنبيط » ... اثنان بثمانية عشر صلديا .. انه رخيص الثمن ..

وتوقفت روزالى عن الحديث فجأة .. فلقد وقع بصرها على سيفران وهو يضحك مازحا ..

وتسمرت الفتاة فى مكانها فى ذهول .. ثم اتسعت عيناها المستديرتان وشحب وجهها الضخم .. وندت عنها صيحة :

ــ آه ! أهذا انت ..

ثم سقطت السلة من يدها لفرط دهشتها ، وعندئذ أطلقت جان صيحة فرح وارتمت على ارض الغرفة وراء تفاحة كبيرة ، بينما راحت روزالى تردد فى ذهول :

ــ كيف ؟ أهذا انت !! ماذا تفعل هنا ؟

والتفتت نحو سيدتها ، واضافت قائلة :

ــ اذن انت التى تركته يدخل يا سيدتى ؟

وظل سيفران صامتا ، واكتفى بأن راح يغمز بعينيه الماكرتين .. وعندئذ طفرت عينا روزالى بدموع الحنان ، ولم تجد خيرا من السخرية وسيلة تعبر بهـا عن مدى سرورهـا برؤيته . وقالت الفتاة وهى تقترب منه :

ــ آه ! هيا ! انك تبدو جميلا ونظيفا فى هذا الزى ! ولكنك تشبه

السلحفاة .. لقد حلقوا لك راسك بطريقة جميلة ، وانت هكذا تشبه كلب قسيس شاب .. يا الهى الكريم ، كم انت قبيح ... كم انت قبيح !

واحس سيفران بالحرج ففتح فمه ، وقال :

ـ انه ليس خطئي .. ولننظر كيف يكون شكلك اذا ارسلوك الى « الأورطة » ..

ويبدو انهما نسيا تماما كل شيء حولهما ، وغاب عن بالهما وجود هيلين وجان والغرفة التي يتحدثان فيها !

وعادت روزالي تسأله قائلة :

ـ وهل كل شيء يسير هناك على ما يرام ؟

ـ بالطبع .. ولكن بقرة عائلة جيجار مريضة ، ومات الاب كانيفيه ، وفقد السيد القسيس حافظة نقوده اثناء عودته من جرانفال ، وكان بها ثلاثة فرنكات .. وفيما عدا ذلك كل شيء على ما يرام

وصمت سيفران ، واخذ ينظر الى روزالي بعينين لامعتين ، بينما قطبت هي جبينها في تأمل وضيق ، ثم خرجت الفتاة من تأملاتها حين أبصرت الخضر متناثرة على الارض ، فجمعتها في السلة .. وسارت نحو المطبخ دون أن تنظر الى سيفران ، ولكن هيلين استوقفتها ، وقالت :

ـ لقد طلبت مني عمتك أن اسمح لهذا الفتى بان ياتي ليراك كل يوم من ايام الآحاد .. انه سوف ياتي في فترة ما بعد الظهر ، فحاولي الا تتاثر اعمال البيت لهذا السبب

فقالت روزالي في سرور :

ـ آه ! يا سيدتي ، انه سيزعجني ولكن لا بأس من ذلك !

وانفرجت شفتا الجندي عن ضحكة صامتة ، ثم انسحب ولسانه يلهج بشكر ربة البيت ، وحينما اغلق الباب من خلفه ، كان وقع اقدامه على الدرج لا يزال يسمع في وضوح

وقالت جان تسأل والدتها :

ـ هل هو شقيق روزالي يا أماه ؟

وارتبكت هيلين لهذا السؤال .. وكادت تندم على الاذن الذى

منحته لسيفران منذ لحظة فى نوبة مفاجئة من طيبة القلب ..
وبعد أن فكرت لبضع ثوان اجابت على ابنتها قائلة :
ــ كلا .. انه ابن عمتها ..



كان مطبخ روزالى يطل على حديقة الدكتور ديبرل ، وكانت بعض اغصان شجر البلوط تدخل من النافذة العريضة خلال فصل الصيف . وكان المطبخ هو أكثر الامكنة مرحا فى الشقة ، فقد كان الضوء يغمره بدرجة كبيرة حتى أن روزالى اضطرت الى وضع ستارة زرقاء على النافذة

وفى الناحية اليسرى من المطبخ ، كانت هناك منضدة وبوفيه ، وكان الفرن موضوعا على اليمين. وكانت روزالى قد رتبت الأوانى بطريقة جميلة ، واعدت لنفسها ركنا بجوار النافذة لتعمل فيه خلال فترة المساء ..

وفى يوم السبت التالى ، واثناء فترة السهرة ، سمعت هيلين ضوضاء صادرة عن المطبخ ، فاسرعت الى هناك ، وسألت روزالى قائلة :

ــ ماذا يحدث هنا ؟.. اتتشاجرين مع الآنية ؟

وكانت روزالى تتفصد عرقا ، وهى منكبة على البلاط تمسحه بكل ما أوتيت من قوة . وأجابت روزالى سيدتها قائلة :

ــ انني أنظف البلاط يا سيدتى ..

لقد صار كل شىء فى المطبخ نظيفا لامعا وصفت آنية الطهو والأطباق بحسب احجامها فى نظام جميل . وبقيت هيلين صامتة لحظة ثم انسحبت وهى تبتسم .. لأن روزالى منذ ذلك الحين، كانت تنظف المطبخ تنظيفا جيدا كل يوم سبت ، لتبرهن لسيفران انها تحب النظافة

وكان سيفران يصل عادة فى الساعة الثالثة والنصف تماما وكانت روزالى تترقب وقع اقدامه الثقيلة وهو يصعد الدرج ، فتندفع الى الباب لتفتحه قبل أن يلمس حبل الجرس .. وكانا فى كل مرة يتبادلان نفس الكلمات :

ــ أهذا أنت ؟

ـ نعم ، انه انا ..

وكانت روزالى لا تدخله الى المطبخ الا بعد ان يخلع قبعته وسيفه وعندئذ تجلسه الى جوار النافذة فى ركنها الذى اعدته ، وتقول :

ـ ابق فى مكانك ولا تتحرك ، وفى وسعك ان تراقبنى بينما اقوم باعداد عشاء السيدة ..

وكان سيفران يراقب روزالى ، وهى تخلط الدقيق بالمقدونس وتضع التوابل للطعام بمهارة فائقة .. وحينئذ كانت تفلت منه كلمة بين حين وآخر ، كأن يقول مثلا :

ـ يا الهى ! ان هذه الرائحة أكثر من اللازم !

وكانت الطاهية المنهمكة فى اعداد الطعام لا تتنازل بالاجابة عليه فى الحال ، فتقول بعد فترة طويلة من الصمت :

ـ انظر .. هكذا يجب ان ينضج الطعام ..

وقلما كان حديثهما يخرج من ذلك ..

وعند انتهاء الزيارة ـ وهو وقت نضوج الطعام ـ كانت روزالى تعيد اليه قبعته وسيفه ليعود الى الثكنات ، وتبدا بتقديم الطعام الى السيدة ، وامارات السرور ظاهرة على وجهها

ورات هيلين ، فى بادىء الأمر ، انه يحب مراقبتهما ، ولهذا كانت تحضر أحيانا على حين غرة تتذرع بطلب ما .. وحينئذ كانت تجد سيفران جالسا فى ركنه .. وكان حين يقع بصره عليها يهب واقفا ، ويتمتم بعبارات الاحترام

واطمأنت هيلين رويدا رويدا حينما رات ان ظهورها لا يزعجهما ، وأنهما يحتفظان دائما بهدوئهما كحبيبين صابرين

وذات يوم ، ذهبت هيلين الى المطبخ ... ووقفت ببابه لحظة دون أن يلحظها أحد منهما . وكان سيفران جالسا فى ركنه أمام المنضدة يشرب فنجانا من الحساء ، بينما كانت روزالى تقطع له بعض شرائح رقيقة من الخبز ..

وسمعت روزالى تقول له وظهرها الى الباب :

ـ هيا .. كل يا صغيرى .. انك تمشى اكثر من اللازم وهذا يجعل معدتك خاوية .. خذ ، هل لديك كفاية من الخبز ؟ هل

تريد مزيدا من الحساء ؟

فاجابها بقوله :

ـ يا له من حساء ! .. ماذا تضعين فيه ؟

فقالت له روزالى :

ـ انتظر لحظة .. هل تحب البصل المسلوق ؟

ودارت روزالى حول نفسها .. وفى هذه اللحظة لمحت سيدتها ، فاطلقت صرخة صغيرة .. ثم وقفت فى مكانها .. وصاحت تقول فجأة :

ـ انه نصيبى من الحساء ياسيدتى .. آه ! تماما ياسيدتى .. واقسم لك على ذلك . لقد سالته اذا كان يريد نصيبى من الحساء .. هيا تكلم انت .. انك تعرف ان هذا ماحدث ..

واستولى القلق على نفس روزالى حينما رات سيدتها تقف صامتة ولا تعلق بشىء ، فاستمرت تردد ، وهى تكاد تبكى :

ـ انه كان جوعان ياسيدتى ، وقد سرق منى جزرة نيئة منذ لحظة .. انهم يطعمونهم طعاما سيئا للغاية ، واعتقد انك أنت نفسك ياسيدتى كنت ستقولين لى : قدمى له اذن بعض الحساء ياروزالى ..

وعندئذ قالت هيلين لروزالى تهدىء من روعها :

ـ حسنا يا ابنتى .. وحينما يكون هذا الفتى جوعان يجب أن تدعيه لتناول العشاء .. هذا كل ماق الأمر .. اننى أسمح لك بذلك

واحست هيلين بشعور فياض من الحنان حينما عاد الهدوء الى الحبيبين اللذين يترعرع حبهما على رائحة الطعام الطيبة !



الفصل السابع

في حجرة النوم

وفي يوم الثلاثاء التالي ، جاء القسيس جوف والسيد راميو كعادتهما لتناول العشاء .. وما كاد الجميع يفرغون من شرب الحساء حتى قالت هيلين ، وهي ترهف السمع :

ــ يالطوفان المطر ! هل تسمعون ؟ انكم ستبتلون الليلة ايها الأصدقاء

وتمتم القسيس جوف يقول :

ــ آه ! يالها من ليلة ! ان المطر قد بلل ثيابي حتى كتفي وانا في طريقي اليكم ..

وقالت جان في هدوء وهي تنظر الى ملعقتها الصغيرة المملوءة بالحساء :

ــ لقد قالت روزالي انكما لن تحضرا الليلة بسبب الجو ، ولكن والدتي أكدت انكما ستحضران .. انكما لطيفان جدا وتحضران دائما ..

وابتسم الجالسون حول المائدة ، وهزت هيلين رأسها في عطف وهي تنظر الى الاخوين . وكان المطر يهطل في الخارج كالسيل بصوت مكتوم .. وكانت دفعات من الريح تهب بين حين وآخر وتصطدم بالنوافذ ، فيبدو وكان الشتاء قد عاد من جديد

وكانت روزالي قد أسدلت الستائر الحمراء بعناية تامة ، اما غرفة الطعام فكانت مغلقة باحكام ، وبها نور هادىء ينبعث من مصباح معلق في السقف . وكان الضيفان والمضيفة يتحدثون بهدوء ، وهم جلوس على المائدة في انتظار بقية أصناف الطعام .

وقالت روزالي في غير كلفة .. وهي تدخل حاملة احد الأطباق :

ـ آه ! لقد جعلتكم تنتظرون ... هاهي ذى بعض أسماك موسى للسيد رامبو ، وهى طازجة تماما

وكان السيد رامبو يتظاهر بالشراهة كي يدخل السرور على نفس جان .. ويبعث السرور في نفس روزالى التى كانت تفخر بمهارتها فى الطهو . والتفت السيد رامبو الى روزالى .. وقال يسألها :

ـ هيا .. ماذا اعددت لنا اليوم ؟ انك دائما تفاجئيننى بالطعام بعد ان أشبع !

فأجابته روزالى قائلة :

ـ لقد اعددت ثلاثة أصناف كالعادة ، فبعد سمك موسى ستأكلون فخذ الضأن .. ثم قرنبيط بروكسل ، ولا شيء أكثر من ذلك ..

ولكن السيد رامبو أخذ ينظر الى جان بطرف عينيه ، لأن الصبية كانت تكتم ضحكاتها ، وتهز رأسها كما لو كانت تقول ان الخادم كانت تكذب ، وحينئذ هز السيد رامبو رأسه علامة على الشك ، فقالت له روزالى وهى تتظاهر بالغضب :

ـ اذن فأنت لاتثق بكلامى لأن الآنسة تضحك .. حسنا ، صدقها اذن وسوف ترى أنك ستضطر الى الاكل من جديد حين تعود الى منزلك

وحينما غادرت الخادم الغرفة ، لم تستطع جان أن تتمالك نفسها فقالت للسيد رامبو :

ـ انك شره أكثر من اللازم ، وقد ذهبت الى المطبخ فوجدت روزالى ...

ولكن الصبية قطعت حديثها فجأة ، وقالت تسأل والدتها

ـ آه ! اننا لايجب ان نخبره بهذا يا أماه .. أليس كذلك ؟ نعم ، لايوجد شيء .. لايوجد أى شيء بالمرة . لقد كنت أداعبك كي أضحك ..



كان هذا المزاح يتكرر كل ثلاثاء ، ويلاقى دائما نفس النجاح . وكانت هيلين تتأثر كثيرا لطيبة السيد رامبو وسعة صدره فى مجاراته لجان ، فقد كانت تعرف أن هذا الرجل قد عاش ردحا طويلا من الزمن فى الريف مكتفيا بعلبة صغيرة من « الانشوجة »

.. وست حبات من الزيتون فى اليوم . أما القسيس جوف فكان لايعرف أبدا مايأكله ، وكثيرا ماكانوا يمزحون معه لجهله وشرود ذهنه ولذلك فعندما أحضرت روزالى طبقا آخر من سمك موسى .. قالت جان مازحة :

ـ ان هذا النوع من سمك الدنيس جيد للغاية

فتمتم القسيس جوف قائلا :

ـ الواقع أنه جيد جدا ياعزيزتى .. لقد اتضح أنه دنيس .. وكنت أظن أنه بياض !

وانفجر الجميع ضاحكين ، فسألهم القسيس فى سذاجة عما يضحكون .. ولكن روزالى دخلت فى هذه اللحظة ، وقالت وهى تضع فخذة الضأن على المائدة :

ـ هذه هى فخذة الضأن ..

وضحك الجميع من جديد ، وكان القسيس جوف هو أول الضاحكين . ثم قال وهو يمد رأسه الكبير

ـ نعم .. انها فخذة من الضأن بكل تأكيد ، واعتقد اننى كنت سأعرفها



كان القسيس شارد الذهن فى هذا اليوم أكثر من المعتاد ، وكان يتناول طعامه بسرعة ، ويبدو متضايقا من الجلوس على المائدة .. وأحيانا كان ينظر الى الجالسين أمامه فى شرود ولا يجيب على بعض أسئلتهم له الا بالابتسامات

ومن حين لآخر ، كان يلقى على اخيه نظرة تنم عن مزيج من القلق والتشجيع . ولم يكن السيد رامبو بدوره هادئا كعادته .. وكانت حاجته الى الحركة والكلام هى التى تكشف عن اضطرابه ، ولم يكن ذلك من طبيعته المتزنة

وبعد الانتهاء من تناول ترنبيط بروكسل خيم الصمت على الجميع ، وتأخرت روزالى فى احضار الحلوى ، فى حين كان المطر يزداد انهمارا فى الخارج حتى خيل للحاضرين انه يلطم النوافذ لطما. وكان الجو خانقا فى غرفة الطعام بعض الشىء ، واحست هيلين بأن الجو لم يكن كالعادة ، وان هناك شيئا ما بين الاخوين يكتمانه فى نفسيهما

ونظرت هيلين اليهما بامعان ، ثم تمتمت تقول آخر الأمر :

ــ يا الهى ! ان المطر عنيف للغاية ! اليس كذلك ؟ ان هذا يقلب الامور راسا على عقب . هل انتما حزينان لذلك ؟

فأجابها السيد رامبو قائلا :

ــ كلا .. ليس هذا بذى بال

وحينما وقع بصر السيد رامبو على الخادم ، وهى تدخل الغرفة حاملة طبق الحلوى ، صاح قائلا ، وكأنه يحاول أن يخفي انفعاله :

ــ ألم أقل لكم ؟ ماهى ذى مفاجأة أخرى !

وكانت هذه المفاجأة هى « كريمة بالفانيليا » ، وكانت الطاهية مشهورة ببراعتها فى هذا الصنف من الحلوى . ونظر الجميع الى ابتسامة روزالى الصامتة العريضة ، وهى تضع الحلوى على المائدة .. بينما أخذت جان تصفق بيدها وتكرر لها :

ــ كنت أعرف ذلك ... كنت أعرف ذلك ! لقد شاهدت البيض فى المطبخ !

وقال السيد رامبو فى يأس :

ــ ولكننى لم أعد جوعان ! من المستحيل أن آكل منها

وارتسمت على وجه روزالى أمارات الجد واليأس ، فقالت للسيد رامبو باعتداد :

ــ كيف ؟ لقد صنعتها من اجلك !.. حاول أن تأكل منها ولو جزءا صغيرا .. نعم لا بد أن تحاول

ورضخ السيد رامبو .. وأخذ حصته من الحلوى . أما القسيس فكان لا يزال شارد الذهن ، ومن ثم فقد طوى منشفته ونهض من مكانه قبل الانتهاء من تناول الحلوى كما كان يفعل فى أحيان كثيرة

وحينما غادرت هيلين المائدة بدورها ، نظر القسيس الى اخيه نظرة يبدو انها متفق عليها ، ثم ذهب مع الشابة الى غرفة نومها..

وقالت جان للسيد رامبو الذى كان لا يزال يحاول آكل نصيبه من الحلوى :

ــ أسرع فانا اريد ان اريك تطريزى

ولكنه لم يسرع .. وحينما راى روزالى تشرع فى جمع الأطباق

اضطر الى النهوض

وتمتم السيد رامبو حين رأى الصغيرة تتجه الى الغرفة :

ـ انتظرى لحظة .. انتظرى اذن

واخذ يبتعد عن باب الغرفة ، وقد بدا عليه القلق والاضطراب .. وحينما سمع القسيس يرفع صوته فى الداخل ، شعر بهزال شديد فاضطر الى الجلوس من جديد امام المائدة الخالية ، ولكنه لم يلبث ان أخرج من جيبه احدى الصحف ، وقال لجان :

ـ سأصنع لك عربة صغيرة فى الحال

وفى الحال ، تخلت جان عن رغبتها فى الذهاب الى الغرفة .. فقد كان السيد رامبو يذهلها بمهارته فى صنع انواع كثيرة من اللعب المصنوعة من الورق .. كالقبعات والمراكب ، ولكن اصابعه كانت ترتعش فى هذه اللحظة وهو يطوى الورق ، ولم يتوصل ابدا الى النجاح فى اتمام التفاصيل الدقيقة . وكان يرفع راسه كلما سمع صوتا يصدر عن الغرفة المجاورة .. التى فيها السيد إلقسيس وهيلين . ومع ذلك كانت جان مهتمة جدا بما يصنعه من لعب ..

وقالت له الصغيرة وقد اتكأت بمرفقيها على المائدة الى جواره:

ـ هل يمكن أن تصنع حصانا صغيرا بعد ذلك لنربطه الى العربة ؟

وفى الغرفة المجاورة كان السيد القسيس يسأل هيلين قائلا ، وهى عاكفة على تطريز طاقية طفل صغير :

ـ ألم تعد جان تسبب لك القلق ؟

وهزت هيلين راسها وأجابته قائلة :

ـ يبدو ان الدكتور ديبرل مطمئن تماما ، ولكن الصبية المسكينة لا تزال عصبية للغاية ، فقد وجدتها بالأمس فاقدة الوعى على مقعدها

فقال القسيس :

ـ انها ينقصها النشاط ، فانت تحبسين نفسك اكثر من اللازم .. انك لا تعيشين كما يعيش الجميع

ولم تجب هيلين ، وسادت بينهما فترة من الصمت .. استطاع

القسيس بعدها ان يدخل فى الموضوع الذى يمهد له .. ولكنه فى اللحظة التى كان يوشك فيها ان يبدأ حـــديثه تمهل من جـــديد واخذ يفكر .. وما لبث ان جذب مقعدا ، وقال وهو يجلس الى جوار هيلين :

ـ انصتى الى يا ابنتى العزيزة ، فمنذ بعض الوقت وانا اريد أن أتحدث معك فى هذه المسالة حديثـــا جديا . ان الحيـــاة التى تعيشينها هنا ليست سليمة ، فالانسان لا يمكنه أن يسجن نفســه هكذا وهو فى مثل سنك .. وكأنه فى دير ، وهذا الانطواء سيىء الاثر عليك وعلى ابنتك ، فضلا عن أنه ينطوى على مخاطر كثير : مخاطر على صحتك ، ومخاطر أخرى ايضا ..

ورفعت هيلين راسها بصورة تنم عن الدهشة ، وسالته قائلة

ـ ماذا تقصد بقولك هذا يا صديقى ؟

فأجابها القسيس ، وهو مرتبك بعض الشيء :

ـ يا الهى ! اننى لا أعرف الدنيا معرفة جيدة ، ولكننى أعرف أن المرأة تكون فيها معرضة للمخاطر حين تظل بلا عائل . وهانتذى وحيدة .. وهذه الوحـــدة التى تعيشين فيها ليســـت شـــيئا جميلا ، وسياتى يوم تقاسين فيه منها

وقالت هيلين فى شيء من العنف :

ـ ولكننى لا اشكو .. اننى اجد نفسى سعيدة جدا هكذا !

فهز القسيس العجوز رأسه الضخم فى هدوء وبطء ، ثم قال :

ـ انك سعيدة بكل تأكيد ، اننى افهم ذلك ، ولكن المرء حينما يسير شوطا بعيدا فى منحدر الوحدة والخيال ، فانه لا يدرى أبدا الى أين يمكن أن يذهب .. اننى اعرفك تماما ، واعرف انك لايمكن ان تقدمى على ارتكاب سوء ، ولكنك قد تفقـــدين هدوءك يوما أو آخر بسبب وحدتك ، وحينئذ يكون الأوان قد فات

وفى الضوء الخافت ، صعدت الدماء الى وجه هيلين . اذن ، فقد استطاع القسيس أن يقرأ مافى قلبها .. وان يعرف الاضطراب الذى كان ينمو فى نفســها ، وهو نفس الاضطراب الذى يمــلا ، فى هذه الايام ، حياتها .. ولم ترد حتى هذه اللحظة أن تحدثه فيه وسقط ما تطرزه هيلين على ركبتيها ، وفكرت فى أن تعترف له

بهذه الاشياء الغامضة التي كانت تكبتها في نفسها ، وتوضحها له .. وبما انه يعرف كل شيء ففي وسعه ان يستجوبها ، وستحاول من ناحيتها ان تجيبه ..

وتمتمت هيلين تقول :

ــ انني اضع نفسي بين يديك يا صديقي ، وانت تعرف جيدا انني انصت اليك دائما

وظل القسيس صامتا لحظة ، ثم قال بصوت بطيء شاع في نبراته الجد :

ــ يا ابنتي .. يجب عليك ان تفكري في الزواج

وفغرت هيلين فاها ، وتدلت ذراعاها من فرط الذهول الذي سببته لها هذه النصيحة . والواقع أنها كانت تنتظر كلمات أخرى ، ولذلك فقد تبلد ذهنها ولم تستطع ان تفهم شيئا . ومع ذلك ، استمر القسيس في حديثه .. يوضح الأسباب التي من اجلها يجب أن تفكر في الزواج ، وهو يقول :

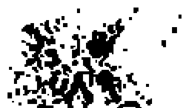
ــ انك مازلت شابة .. ولا يمكنك ان تمكثي وحدك أكثر من ذلك في هذا الركن البعيد من باريس . انك لا تكادين تجرئين على الخروج ، وتجهلين كل شيء من الحياة . لا بد أن تعودي الى الحياة العادية والا ندمت على عزلتك . انك لا تلاحظين تأثيرها عليك .. ، ولكن أصدقاءك يلاحظون شحوبك في قلق

وكان القسيس يتوقف عن الكلام بعد كل عبارة مؤملا انها ستقاطعه وتناقشه في هذا الاقتراح ، ولكنها ظلت باردة كقطعة من الثلج ..

واستطرد القسيس في حديثه قائلا :

ــ ان لك طفلة .. ولا يخفى على أن هذه المسألة دقيقة دائما ، ولكن يجب ان تعرفي جيدا أن من مصلحة جان نفسها ان يكون هنا ذراع رجل تتكئى عليه ، فهذا امر ذو منفعة كبيرة .. آه ! وانا اعلم تماما انه يجب العثور على رجل طيب الغاية يصلح ان يكون أبا حقيقيا .. »

ولم تدعه هيلين يتم عبارته ، وثارت فجأة على نصيحته لها بالزواج قائلة :



ــ كلا .. كلا .. لست اريد شيئا من ذلك .. ماهذا الذى أتيت لتنصحني به ياصديقي؟ كلا على الاطلاق .. هل تسمعني .. على الأطلاق !

واسرعت دقات قلبها ، واحست بالذعر من الطريقة التي رفضت بها اقتراح القسيس .. وكأنه قد حرك في نفسها هذا الركن الغامض الذى تتجنب النظر اليه . لقد جعلها عنفها وذعرها هذا تدرك اخيرا مدى خطورة مرضها المعنوي .. ومع ذلك كانت تشعر بخجل يشبه خجل امرأة تخلع آخر قطعة من ثيابها

واخيرا بدأت هيلين تتملص قائلة :

ــ ولكنني لا أريد ! انني لا أحب احدا !

وبما أن القسيس كان ينظر اليها دائما ، فقد خيل اليها أنه يقرأ كذبها على وجهها ، فاحمرت خجلا ، وقالت :

ــ تذكر انني لم أخلع ثياب الحداد الا منذ خمسة عشر يوما فقط ..

فقال القسيس في هدوء :

ــ لقد فكرت كثيرا يا ابنتي قبل ان اتكلم ، واعتقد أن سعادتك في ذلك .. واطمئني الى أنك لن تقدمي على شيء الا بوحي من ارادتك واختيارك ..

وانتهى الحديث عند هذه النقطة .. وهيلين تحاول أن تكبت سيلا من الاحتجاجات التي كانت توشك أن تتصاعد من جديد الى شفتيها .

وبدأت في التطريز من جديد .. واثناء ذلك كانت جان تقول في غرفة الطعام :

ــ كلا ، اننا لانربط ابدا دجاجة الى عربة .. وانما نربط اليها حصانا ... انك اذن لاتعرف كيف تصنع الخيول ؟

فأجابها السيد رامبو قائلا :

ــ آه ! كلا .. ان صنع الخيول صعب جدا ، ولكنني ساعلمك توا صنع العربات اذا اردت

وكانت اللعبة تنتهى دائما بهذه الطريقة ، اذ تنظر جان في انتباه شديد الى صديقها الطيب ، وهو يطوى الورقة الى عدد كبير من

المربعات الصغيرة ، ثم تحاول بدورها أن تفعل ذلك فلا تنجح ، وحينئذ كانت تدق الأرض بقدميها . ولكنها كانت تعرف تصنع البواخر والقبعات

وكان السيد رامبو دائما يكرر لها في صبر :

ــ انظري .. يجب أولا أن تكوني اربعة مربعات ثم تقلبينها هكذا ..

وفي نفس الوقت كان السيد رامبو يرهف السمع .. ويبدو أن أذنه التقطت بعض الكلمات التي قيلت منذ لحظة في الغرفةالمجاورة ، فازدادت يداه اضطرابا وارتعاشا .. وارتبك لسانه لدرجة انه كان ياكل نصف الكلمات ..

ولم تستطع هيلين أن تهدىء نفسها ، فوضعت تطريزها على المنضدة واستأنفت تقول للقسيس :

ــ أتزوج مرة ثانية ؟ ومن أتزوج ؟ لابد ان لديك شخصا تعرفه .. أليس كذلك ؟

كان القسيس « جوف » قد نهض من مكانه وأخذ يذرع الغرفة في خطوات بطيئة ، فأوما برأسه علامة الموافقة على سؤال هيلين دون أن يتوقف عن السير

وعادت هيلين تقول :

ــ حسنا .. اذكر لي اسم هذا الشخص

ووقف القسيس أمامها لحظة ثم هز كتفيه ، وتمتم يقول :

ــ وما فائدة ذلك مادمت ترفضين ؟

ــ ولكن كيف يمكنني أن اتخذ قرارا دون أن اعرف أسمه ؟

ولم يجب عليها في الحال ، وانما ظل واقفا في مكانه ينظر اليها وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة حزينة بعض الشيء . وأخيرا قال بصوت خفيض :

ــ كيف ؟ ألم تعرفينه ؟

والواقع أن هيلين لم تكن تعرفه حقا ، فاخذت تفكر لحظة في دهشة ، وحينئذ أشار القسيس برأسه دون أن يتكلم الى غرفة الطعام

وظهرت سمات الجد على وجه هيلين ، وبقيت مدة طويلة تنظر

الى الارض في تفكير . كلا بكل تاكيد ، انها لم تكن تستطيع أن تخمن هذا ابدا ، ومع ذلك كانت لاتجد اى اعتراض ، فقد كان السيد رامبو هو الرجل الوحيد الذى تستطيع ان تضع يدها في يده باخلاص ودون خوف . انها كانت تعرف طيبته وتحمل له مودة كبيرة ، وعلى الرغم من ذلك ، فان فكرة انه يحبها جعلت برودة شديدة تسرى في جسدها

واتجه القسيس الى باب الغرفة ، ثم نادى على هيلين ، وقال لها برفق :

ــ تعالى ... انظرى !

ونظرت هيلين فشاهدت السيد رامبو وقد أجلس جان على مقعده وجلس هو على الارض تحت قدميها يحتضنها بذراعيه . وعلى المائدة كان يوجد محراث تجره دجاجة .. وبعض اللعب من البواخر والقبعات

وكان السيد رامبو يقول للصبية :

ــ اذن فانت تحبينني كثيرا ؟ قولى مرة اخرى انك تحبينني

واجابت جان تقول :

ــ بالطبع ... اننى أحبك كثيرا ، وانت تعرف ذلك

وكانت تبدو على السيد رامبو امارات التردد والاضطراب ، كما لو كان عليه أن يفصح عن حب يكتمه في قلبه ، فقال للصبية :

ــ واذا طلبت منك أن أبقى معك هنا دائما ، فبماذا تجيبين ؟

فقالت الصبية :

ــ أكون مسرورة ونلعب معا .. اليس كذلك ؟ ان هذا يسلينا كثيرا ..

فقال مكررا :

ــ دائما .. أتفهميننى ؟ سابقى هنا دائما ..

وكانت جان قد امسكت بباخرة من الورق واخذت تحولها الى قبعة جندى ، لتمتمت تقول :

ــ عندئذ يجب ان تاذن والدتى بذلك

ويبدو أن هذا الرد اعاد الى الرجل قلقه .. فقال مجيبا عليها :

ــ بالطبع .. ولكن اذا اذنت والدتك بذلك ، فانك ستوافقين

ايضا ... اليس كذلك ؟

كانت جان على وشك أن تنتهي من صنع القبعة ، فاستولى عليها حماس كبير .. وأخذت تدندن قائلة

ـ نعم ، نعم .. نعم ، نعم .. انظر ، يالها من قبعة جميلة !

وبدا التأثر على وجه السيد رامبو .. فهب واقفا على قدميه وقد طفرت الدموع من عينيه . والقت جان بنفسها بين ذراعيه فاخذ يغمر رقبتها بالقبلات . لقد كلف أخاه القسيس بأن يحصل على موافقة هيلين بينما كان هويحاول ان يحصل على موافقةالصبية ولم تجب هيلين بشيء ، فاستطرد القسيس مستأنفا حديثه ..

قال القسيس « جوف » وهو يبتسم لهيلين :

ـ ءانتلذي ترين أن الصبية تريد ذلك ..

ولم تجب هيلين بشيء ، فاستأنف القسيس حديثه واخذ يعدد مزايا السيد رامبو :

ـ اليس رامبو والدا جاهزا بالنسبة للصبية ؟! انك تعرفينه جيدا ويمكنك أن تعهدي اليه بنفسك دون ثمة مخاطرة

ولما شاهد هيلين تلوذ بالصمت .. أضاف يقول بانفعال ، واعتداد كبير :

ـ اذا كنت قد كلفت نفسي بهذه المهمة ، فذلك لانني لا افكر في أخي ... وانما في سعادتك أنت

فقالت هيلين في انفعال ايضا :

ـ انني أصدقك ، وأعرف كم تحبني . انتظر لحظة ، فانا اريد ان أرد على أخيك أمامك

كانت الساعة تدق العاشرة حينما دخل السيد رامبو الى غرفة النوم ، وسارعت هيلين الى لقائه ، وقد مدت يدها قائلة :

ـ اشكرك ياصديقي على ما تعرضه على .. انني احتفظ لك بهذا الجميل ، وحسنا فعلت بان تكلمت

كانت هيلين تنظر الى وجهه في هدوء ، ويده الغليظة ممسكة بيدها . وبدا الاضطراب واضحا على السيد رامبو .. حتى انه ظل ينظر الى الارض في خجل

واستطردت هيلين تقول :
ــ ولكنني ، فقط ، أريد منك ان تمهلني لافكر ، وربما يستغرق هذا التفكير وقتا طويلا

وزال الكرب من السيد رامبو ، فقد فرح بانها لم ترفضه على الفور ، وقال :
ــ لك ماتريدين .. ستة اشهر .. سنة .. أو أكثر من ذلك

فابتسمت هيلين ابتسامة خفيفة ، وقالت :
ــ ولكنني اريد ان نظلّ أصدقاء .. انك ستحضر الى هنا كلما كنت تفعل من قبل . وكل ما اطلبه ان تعدني بان تنتظر حتي اكلمك في هذا الموضوع .. هل اتفقنا ؟

وفي تلك اللحظة ، كان السيد رامبو قد سحب يده من يدها ، وراح يبحث عن قبعته بيد محمومة ، وكان يوافق على كل ماتقوله بهزات مستمرة من رأسه . وفي اللحظة التي كان يوشك فيها على الخروج .. تمتم يقول ، وكأنه وجد ما كان يبحث عنه :
ــ استمعي الى من فضلك .. انك الآن تعرفين انني هنا الى جوارك .. اليس كذلك ؟ حسنا .. انني ساكون هنا دائما مهما يحدث ، وهذا ما أردت من اخي أن يشرحه لك .. وبعد عشر سنوات ــ اذا شئت ــ لن يكون عليك الا أن تشيري بيدك لاطيعك .. وفي هذه المرة ، امسك هو بيد هيلين وضغط عليها ضغطةشديدة حتى كاد يحطمها

وحينما كان القسيس وأخوه يهمان بنزول السلم ، التفتا خلفهما وقالا كعادتهما :
ــ الى اللقاء يوم الثلاثاء

فأجابت هيلين تقول :
ــ نعم .. الى اللقاء يوم الثلاثاء



حينما عادت هيلين الى الغرفة ، كان صوت المطر المنهمر يقرع خشب النوافذ من جديد . وأثار ذلك في نفسها شعورا كبيرا بالحزن ، فتمتمت تقول لنفسها : « يا الهي ! يالهذا المطر العنيد ! انه سيغرق ثيابهما ! »

وفتحت النافذة والقت نظرة على الشارع ،فلمحت ظهر الـ... رامبو المستدير ، وهو يخوض برك المياه الصغيرة بسرور ، دون ان يبدو عليه انه مهتم بهذا الطوفان ...

وكانت مسحة من الجد تكسو وجه الصبية منذ ان التقطت آخر كلمات صديقها الطيب .. انها قد خلعت حذاءها الصغير ، وجلست على حافة سريرها .. وقد بدا عليها انها تفكر تفكيرا عميقا . ودخلت والدتها لتقبلها ، وهى تقول :

ـ طابت ليلتك يا جان .. هيا قبلينى

وبدا على الصبية انها لم تسمع والدتها ، فجلست هيلين أمامها القرفصاء .. وقالت تسألها بصوت خفيض :

ـ اذن ، افلا يسرك ان يسكن معنا ؟

ولم يبد على الصغيرة انها دهشت لهذا السؤال ، لقد كانت ولا شك تفكر فى الامر .. واكتفت بأن أومأت لوالدتها فى بطء علامة الموافقة

ـ ولكنك تعرفين انه سوف يكون هنا دائما ، ليلا ونهارا على المائدة ، وفى كل مكان ؟

وازدادت أمارات القلق فى عينى الصغيرة الصافيتين ، فوضعت خدها على كتف أمها وقبلتها فى رقبتها . واخيرا قالت تسألها ، وهى تهمس فى اذنها وكل جسدها يرتعد :

ـ هل سيقبلك يا أماه ؟

وصعدت حمرة خفيفة الى جبين هيلين ، ولم تدر اولا بماذا تجيب على هذا السؤال الصبيانى ، وأخيرا تمتمت تقول :

ـ انه سيكون كوالدك ياعزيزتى

وتصلب ذراعا الصبية وانفجرت فى بكاء حار وهى تتمتم قائلة فى كلمات متقطعة :

ـ كلا .. كلا .. لم أعد أوافق ..! ارجوك يا أماه ، قولى له اننى لا اريد .. اذهبى توا لتخبريه بانى لا اريد ..

وكادت الصبية تختنق ، فارتمت على صدر امها واخذت تغمره بقبلاتها ودموعها . وحاولت هيلين تهدئتها بأن كررت لها انها سوف تصلح الامر ، ولكن جان كانت تريد ردا قاطعا فى الحال

واستطردت تقول :

ـ قولى له كلا يا أمى الصغيرة .. قولى كلا .. انك ترين تماما اننى سأموت لهذا السبب .. انك لن تفعلى هذا أبدا أبدا ؟ أليس كذلك ؟ أبدا !

وظلت الصبية لعدة دقائق تحتضن والدتها .. كما لو كانت تدافع عنها ضد الذين جاءوا ليختطفوها منها . وأخيرا استطاعت هيلين التأثير عليها ، فاستغرقت فى النوم .. ولكن الطفلة كانت تعتريها هزات عنيفة أثناء نومها .. ، وتفتح عينيها من حين لآخر لتتأكد من أن والدتها ما زالت الى جانبها ..



الفصل الثامن

نظرات ..

كانت شمس ابريل الجميلة تلقى بأشعتها الحنون على حديقة الدكتور ديبرل ذات الخضرة الرقيقة التي تشبه قماش « الدانتيل »
وقد ظلت السماء صافية مدة ثلاثة اسابيع متواصلة في هذا الشهر .. دون غيوم .. وهذه معجزة من معجزات الربيع الباريسي .. وهو يحتفل بشباب الطبيعة الجديد .. ويترعرع قلب هيلين
وكانت هيلين تنزل بعد ظهر كل يوم مع ابنتها الى حديقة الدكتور ديبرل ، حيث مكانها المفضل تجاه أول شجرة بلوط على اليمين .
وكانت مدام ديبرل تكرر لهيلين دائما قولها في كل أمسية :
ـ انك هنا في بيتك يا عزيزتي ..
وعندما تغادر الحديقة كانت تقول لها:
« الى اللقاء » غدا يا عزيزتي .. حاولي أن تحضري مبكرا كي يطول حديثنا ..
وكانت هيلين تشعر ، وهي جالسة في الحديقة ، انها كما لو كانت في بيتها .. كما كانت تنتظر ساعة النزول اليها بصبر نافد ..
فقد كانت تهيم بنظافة أحواض الزهور وممرات العشب التي كانت تشذب كل صباح حتى أن المرء كان يحس بها تحت قدميه وكأنها سجادة ناعمة طرية !
وكانت السيدتان كثيرا ما تقضيان فترة ما بعد الظهر بمفردهما، دون أن يجلس معهما أحد سوى لوسيان وجان اللذين كانا يلعبان بالقرب منهما ..
وكانت قصص مدام ديبرل عن صديقاتها الحميمات وأحداث اليوم ، وعن فوضى حياة هذا المجتمع التي تتلاطم في هذا الجبين

الضيق : جبين هذه المرأة الجميلة .. لا تنتهي

ومع أن هيلين لم تكن تنصت دائما اليها ، فانهـا كانت في غاية الابتهاج في هذا الجو من الحنـان الذى تعيش فيه هنـا وسط ملاطفات جولييت ، وكانت كثيرا ما تردد أن جولييت انسانة طيبة كالملاك . وكانت مدام ديبرل قد كفت منذ عيد الفصح من استقبالاتها في أيام السبت . فقد كانت العادة تقضي بأن تتوقف هذه الاستقبالات في هذه الفترة من السنة . ولكن جولييت كانت تخشى الوحدة ، ولذا كانت تفرح كثيرا حين يأتي أحد لزيارتها في حديقتها بغير كلفة .. وكان الموضوع الذى يشغلها في ذلك الوقت هو اختيار المصيف الذى ستقضي فيه شهر أغسطس ، ولذلك كانت كلمـا جاءتها احدى الزائرات تكرر نفس القصة ..

وكان مالينيون الجميل عندما يأتي يلقى بنفسه في غير اكتراث على مقعد من طراز ريفي ، وكثيرا ما كان يتحدث عن كراهيته للريف والمصايف فيقول :

ـ أن المرء لابد وأن يكون مجنونا عندما يذهب فيصيبه الزكام على شاطىء البحر

هذه المناقشات كانت تسمعها هيلين كل يوم دون أن تتعب ، فقد كانت سعيدة بهذه الأيام التى تسير على وتيرة واحدة

وذات مساء ، وبينما كانت هيلين تنسحب عائدة الى بيتها ، قالت لها جولييت :

ـ انني مضطرة الى الخروج غدا يا عزيزتي .. ولكن لا يجب أن يمنعك هذا من النزول الى الحديقة ، ويمكنك انتظارى .. لأنني لن أعود في وقت متأخر



وجاء اليوم التالي ، ونزلت هيلين الى الحديقة وقضت بمفردها في هذه المرة . فترة ممتعة من فترات بعد الظهر فقد كانت لاتسمع فوق رأسها سوى رفرفة أجنحة العصافير وهى تهبط على الاشجار . ومنذ ذلك الوقت ، أصبحت أجمل فترة تقضيها في الحديقة هي التي تكون فيها بمفردها

وأخذت علاقة هيلين بأسرة ديبرل تتوثق أكثر فأكثر ، حتى أنها

كانت تتناول طعام العشاء معهم كصديقة يدعوها المرء فى اللحظة التى يجلس فيها الى المائدة ، وكان هذا يحدث حينما كانت تبقى الى وقت متأخر تحت أشجار البلوط

وكان هذا العشاء يتم فى جو عائلى يسبغ الاولاد عليه البهجة بمرحهم ، ويبدو فيه الدكتور ديبرل وهيلين كصديقين لهما مزاج عاقل بارد الى حد ما ، وكان هذا هو الذى يجعل كل منهما يحب الآخر . وكانت جولييت كثيرا ما تصيح قائلة :

ــ انكما تتفاهمان معا بطريقة جيدة ... ان هدوءكما يثيرنى

وكان الطبيب يعود كل يوم من زياراته فى نحو الساعة السادسة مساء ، فيجد السيدتين جالستين فى الحديقة . وكانت هيلين تنسحب فى بادىء الأمر كى تترك الزوجين بمفردهما ، ولكن جولييت كانت تغضب بشدة لهذا الانسحاب المفاجىء .. حتى رضيت هيلين بأن تبقى آخر الامر

وفى كل مرة يحضر فيها الزوج ، كانت زوجته تمد له خدها ليطبع عليه دائما نفس القبلة الودية .. ولم تكن هذه القبلة تسبب أى حرج لهيلين ، فقد كانت تبدو مرتاحة النفس الى صفاء هذه الأسرة المتحدة السعيدة

وبمجرد أن يجلس الزوج كانت جولييت لا تكف عن استجوابه دون أن تنتظر اجابة .. « أين ذهبت ؟ ماذا فعلت ؟ » ، فيحدثها عن زياراته للمرضى أو عن قطعة من الأثاث شاهدها ، عرضا ، فى احد المحال . وكثيرا ما كانت عيناه تلتقيان بعينى هيلين ، وحينئذ ينظران الى بعضهما فى جد ، وكان كلا منهما يرى ما يدور فى قلب الآخر ، ثم يبتسمان وهما يخفضان عيونهما فى بطء

وكانت ثرثرة جولييت لا تسمح لهما بالحديث معا ، فقد كانت تنغمس فى الحديث عن شتى الموضوعات ، ومع ذلك كانا يتبادلان بعض العبارات . وحين كان أحدهما يقول كلمة ، يوافق عليها الاخر باشارة خفيفة .. كما لو أن افكارهما واحدة . انه وفاق وثيق كان يأتى من أعماق نفسيهما ، وكان صمتهما يزيده رسوخا . وفى بعض الأحيان كانت جولييت تقلع عن ثرثرتها ، وهى تشعر بشىء من الخجل وتخاطب هيلين قائلة :

ـ آه ! اخشى ان نضايقك يا عزيزتي ، فنحن نتحدث عن اشياء لا تسليك بالمرة

ولكن هيلين كانت تجيبهما في مرح :

ـ كلا .. كلا .. لاتلقي بالا الي .. انني لاأتضايق على الاطلاق؛ فمن دواعي سعادتي الا اقول شيئا واكتفي بالانصات

والواقع ان هيلين كانت صادقة .. فقد كانت في صمتها الطويل هذا تتذوق جمال الحديقة وسحر المكان ، وكانت ترفع راسها المائل على تطريزها ، بين وقت وآخر ، لكي تتبادل مع الدكتور ديبرل هذه النظرات الطويلة التي تربط كلا منهما بالآخر . انها تعترف الآن لنفسها بأن هناك شعورا ما دفينا بينه وبينها ، وهو شعور جميل .. يزيد من جماله ان احدا لا يعرفه في هذا العالم ..

وكانت هيلين تحب هذا الرجل الذي يعامل زوجته وابنه في طيبة كبيرة ، وكان حبها يزداد حين تراه يداعب لوسيان او يقبل جوليت على خدها . لقد نمت صداقتهما منذ أن شاهدته وسط اسرته ، وهي الآن اصبحت كأحد افرادها ، ولا تطيق فراقها .. بل لقد كانت ، في قرارة نفسها ، تطلق عليه « هنري » مثل جوليت التي كانت دائما تناديه بهذا الأسم كأن الكلفة مرفوعة بينهما .. وحينما كانت شفتاها تقولان « يا سيدي » كان هناك دائما صدي في نفسها يردد قائلا : « هنري »

وذات يوم وجدها الطبيب جالسة بمفردها تحت شجرة البلوط ، فقال لها :

ـ أليست زوجتي هنا ؟

فأجابته هيلين ضاحكة :

ـ كلا ، لقد خرجت وتركتني .. ولكنك عدت اليوم في وقت مبكر

وجلس الدكتور ديبرل الي جوارها ، وكان الطفلان يلعبان في الحديقة . ان انفرادهما معا لم يكن يثير اي اضطراب في نفسيهما . جلسا يتحدثان معا نحو ساعة دون أن يشعرا لحظة واحدة باية رغبة في التلميح الي هذا الشعور الحنون الذي يملأ قلبيهما . وما فائدة الكلام في هذا الموضوع ؟ انهما يعرفان ما يمكن

ان يقوله كل منهما للآخر ، ووجودهما مما يكفي في حد ذاته لأن يكونا سعيدين ، ولأن يتمتعا بهذا الوجود دون أي اضطراب .. انهما يتمتعان بوحدتهما في نفس المكان الذي يقبل فيه زوجته امامها

وفي هذا اليوم ، أخذ الطبيب يداعبها لأنها عاكفة دائما على العمل ، فقال :

ـ هل تعرفين انني لا اعرف لون عينيك ؟ ان رأسك مائل دائما على ابرتك !

فرفعت هيلين راسها ونظرت اليه ، وقالت تسأله في رقة :

ـ هل يضايقك ذلك ؟!

ولم يجب الطبيب ، وانما استمر في حديثه قائلا :

ـ أعتقد انهما رماديتان مع شعاع ازرق خفيف .. أليس كذلك ؟

ومنذ ذلك اليوم ، كان الدكتور ديبرل كثيرا مايجدها جالسة بمفردها في ضوء الغسق . ورغما عنهما ، ودون أن يشعرا بذلك ، بدأت الكلفة تزول بينهما . حتى ان صوتهما بدأت تشيع في نبراته رنة من الدعابة لم تكن تصدر عنهما حينما يكونان في حضرة شخص آخر . ومع ذلك ، فحينما كانت تصل جولييت لتقص عليهما ـ في ثرثرة محمومة ـ أخبار شئونها في باريس .. كانا لايحسان بالضيق لوجودها بل يستمران فيما بدآه من حديث دون أن يبدو عليهما اى اضطراب ، ودون أن يبعدا مقعديهما الواحد عن الآخر .. ان هذا الربيع الجميل ، وهذه الحديقة التى تزدهر فيهما الازهار والورود يمدانهما باول سحر نابع من العاطفة المتبادلة بينهما

وفي نهاية الشهر ، كانت مدام ديبرل قد انتهت الى التفكير في مشروع كبير ، فقد قررت فجأة احياء حفل راقص للطفلين الصغيرين . وعلى الرغم من أن موسم الحفلات كان لايزال مبكرا جدا في هذا الوقت من السنة ، فان هذه الفكرة ملأت رأسها الخاوي .. للدرجة انها بدأت بالفعل تستعد للحفل بنشاط عجيب ، وكانت السيدة تريد أن يكون الحفل غاية في الروعة ، ولابد ان يرتدي الضيوف فيه ثياب السهرة

ومنذ ذلك الوقت ، لم يعد لمدام ديبرل حديث الا عن حفلها

الراقص .. كانت تتحدث عنه فى منزلها ومع الآخرين ، وفى كل مكان . وكانت تحدث فى الحديقة مناقشات لانهاية لها . وكان مالينيون الجميل يرى أن هذا « المشروع » سخيف بعض الشيء ولكنه غير رايه فى النهاية .. واخذ يتابعه باهتمام كبير . وفضلا عن ذلك ، فقد وعد مدام ديبرل بأن ياتى لها بأحد المغنيين الهزليين من معارفه

وبعد ظهر ذات يوم ، وبينما كان الجميع تحت الأشجار ، اثارت جولييت موضوع الملابس التنكرية التى سيرتديها كل من لوسيان وجان فى الحفل . قالت مدام ديبرل :

ـ اننى مترددة جدا ، وقد فكرت فى أن يرتديا زيا هزليا من الحرير الابيض اللامع

فقال مالينيون :

ـ انه زى عادى جدا ! واعتقد ان الكثيرين سيحضرون الى الحفل بهذا الزى .. انتظرى ، فيجب أن نجد شيئا فريدا !

واستغرق مالينيون فى تفكير عميق ، ومالبثت أن حضرت بولين ، وهى تصيح قائلة :

ـ اننى اريد ان ارتدى زى خادم شابة ..

فقالت مدام ديبرل فى دهشة كبيرة :

ـ أنت تتنكرين ؟! انك لست بطفلة ايتها البلهاء الكبيرة ؟ لابد أن ترتدى ثوبا ابيض

فتمتمت بولين تقول :

ـ ان زى الخادم .. افضل بكثير

وعلى الرغم من ان بولين كانت فى الثامنة عشرة من عمرها ، الا أن جسمها كان ناضجا تماما ، ومع هذا كانت تحب اللعب مع الأطفال

وكانت هيلين عاكفة اثناء هذا كله على تطريزها بالقرب من جذع شجرتها . وكانت ترفع راسها احيانا لتبتسم للدكتور ديبرل وللسيد رامبو اللذين كانا يقفان امامها يتحدثان معا ، وكان السيد رامبو قد انتهى به الأمر أن أصبح صديقا حميما لأسرة ديبرل

وسأل الطبيب هيلين قائلا :

ـ وجان .. ماذا سترتدى ؟

فصاح مالينيون قائلا :

ـ لقد وجدتها ! ان لوسيان سيرتدى بذلة ماركيز من عهد لويس الخامس عشر !

وحينما رأى أن الحاضرين لم يتحمسوا كثيرا لفكرته اضاف يقول فى دهشة كبيرة :

ـ كيف ! ألا تفهمون ؟ ان لوسيان هو الذى سيقوم باستقبال ضيوفه الصغار ، وحينئذ لابد أن يقف على باب الصالون وهو يرتدى ثياب ماركيز ليحيى السيدات بانحناءات نبيلة ، ويحسن أن يعلق فى جانبه باقة كبيرة من الأزهار

وعارضته جوليت قائلة :

ـ ولكننا سيكون لدينا عشرات من المراكزة !

فقال مالينيون فى هدوء :

ـ وفيم يهم ذلك ؟ فكلما زاد عدد المراكزة كلما كان الجو غريبا . اننى أؤكد لكم ان هذا شىء لامثيل له .. ان سيد المنزل ينبغى ان يرتدى ثياب الماركيز ، والا فان حفلكم سيكون فاشلا

ويبدو أن مالينيون كان مقتنعا جدا بفكرته لدرجة ان جوليت نفسها لم تلبث أن تحمست لها آخر الامر وقالت :

ـ ان بذلة ماركيز من طراز بومبادور مصنوعة من الحرير الابيض الموشى بباقات صغيرة من الزهر لابد أن تكون جميلة للغاية

فكرر الدكتور ديبرل سؤاله :

ـ وجان ؟

وجاءت الفتاة الصغيرة لتتكىء على كتف والدتها فى هذه اللحظة ، وأخذت تداعبها مداعبات لطيفة ، وبينما كانت هيلين على وشك ان تفتح فمها لتتكلم تمتمت جان قائلة :

ـ هل تعرفين ماوعدتنى به يا اماه ؟

فسألها الحاضرون فى صوت واحد :

ـ ماهو اذن ؟

وكانت جان تنظر الى والدتها فى توسل ، فاجابت هيلين قائلة وهى تبتسم ابتسامة صغيرة :

ـ ان جان لاتريد ان يعرف احد الزى الذى سترتديه

وصاحت الصبية تقول :
ــ هــذا صحيح ! لان التأثر يزول تماما حينما يقول المرء ماذا سيرتدى

وسر الحاضرون لهذا الدلال لحظة ، واراد السيد رامبو أن يغيظها . والواقع ان جان كانت تعبس فى وجهه منــذ فترة من الوقت ، حتى استولى اليأس على الرجل المسكين ، ولم يعد يعرف كيف يستعيد حب صديقته الصغيرة . ولذا كان يمعن أحيانا فى اغاظتها بدالمع من التقرب اليها . وفى هذه المرة أخذ يكرر قائلا وهو ينظر اليها متصنعا المكر :
ــ سأقول انا ماذا سترتدى جان ..

وشحب وجه الصبية شحوبا شديدا ، واتخذ وجهها اللطيف الحزين طابعا من القســوة العنيفة ، وقالت للسيد رامبو :
ــ كلا . ارجوك لاتقل شيئا ..

ولما استمر السـيد رامبو يتظاهر بانه يريد الكلام ، ارتمت عليه جان وهى تصيح فى جنون :
ــ اسكت .. اننى لا أريد ذلك ..! لا أريد ذلك !

ولم تجدهيلين متسـعا من الوقت لكى تمنع حدوث هذا الانفجار وكانت انفجارات الصبـية مريعة تتمثل فى نوبات عنيفة من الغضب الاعمى الذى يهزها هزا ، وقالت لابنتها فى قسـوة :
ــ جان ! احترسى والا سوف أؤدبك !

ولكن جان لم تكن تنصت اليها أو تسمعها .. كانت ترتعد من قمة راسها الى أخمص قدميها ، وتدق الأرض برجليها الصغيرتين وتكرر قائلة وهى تكاد تختنق :
ــ لا أريد ذلك ! لا اريد ذلك !

وتشبثت الطفلة بذراع السيد رامبو واخذت تلويه بقوة عجيبة . وذهبت تهديدات هيلين أدراج الرياح ، ولما لم تستطع الأم أن تكبح جماح ابنتها بالقسـوة ، استولى عليها الحزن واكتفت بأن تمتمت تقول للصبية فى هدوء :
ــ جان انك تؤلميننى كثيرا

وادارت الصبية راسها ونظرت الى هيلين ، فلمـا وقـع بصرها

على وجه والدتها الذي ينطق باليأس ، ورأت الدموع تكاد تطفر من عينيها ، اخلت سبيل السيد رامبو على الفور ، وانفجرت في نوبة عنيفة من البكاء . وقالت وهي ترتمي على صدر امها :

ـ كلا يا أماه .. كلا يا أماه !

وضعت جان كفها على وجه أمها كما لو كانت تريد أن تمنعها من البكاء .. ولكن هيلين ابعدتها عنها في رفق ، وعندئذ نهوت على مقعد مجاور وعلا نحيبها

واخذ لوسيان يتأمل الفتاة الصغيرة في مزيج من الدهشة والسرور . وطوت هيلين ماكانت تطرزه وهي تعتذر للحاضرين عما حدث ، ولكن جولييت قالت لها تهدئها :

ـ يجب أن يغفر المرء كل شيء للاطفال ، بل على العكس ، ان قلب الصغيرة اللطيفة طيب للغاية .. وأولى بنا ان نغفر لها هذا لأنها تنتحب هكذا بقوة

ونادتها جولييت كي تقبلها ، ولكن جان ظلت تجلس على مقعدها وقد اختنقت بالدموع

واقترب كل من السيد رامبو والدكتور ديبرل من الصبية ، وانحنى عليها الأول ، وقال بصوته الطيب .. وقد غلبه التأثر :

ـ هيا ياعزيزتي ... لماذا غضبت ؟ هل فعلت لك شيئا ؟

فاجابته الطفلة وهي تبعد يديه عنها :

ـ انك تريد ان تأخذ امي ..

وكان الدكتور ديبرل ينصت اليهما فشرع في الضحك ، ولم يفهم السيد رامبو في الحال ، فعاد يقول :

ـ ماذا تقولين ؟

فقالت الطفلة في اصرار :

ـ نعم ، نعم .. في يوم الثلاثاء الماضي .. انك تعرف هذا جيدا . لقد جلست على ركبتيك وسألتني عما اذا كنت أوافق على ان تبقى معنا في المنزل

واختفت ابتسامة الدكتور ديبرل في الحال ، واخذت شفتاه ترتعدان وقد شحب لونهما شحوبا شديدا . أما السيد رامبو فقد احمر وجهه بشدة ، وقال للصبية بصوت منخفض :

ـ ولكنك قلت اننا سنلعب معا دائما

فقالت جان في عنف :

ـ كلا ، كلا .. انني لم اكن اعرف . انني لا أريد ذلك ..أتفهمني؟ لاتتحدث ابدا عن هذا ، وسنكون اصدقاء

وسمعت هيلين هذه الكلمات الاخيرة فقالت لابنتها :

ـ هيا اصعدي ياجان .. وحين يبكي المرء ، يجب الا يضايق الآخرين

وحيت هيلين الحاضرين وهي تدفع جان أمامها ، وظل الدكتور ديبرل يرمقها بنظراته ، بينما بدت على وجه السيد رامبو امارات يأس بالغ . اما مدام ديبرل وبولين ، فقد اخذتا لوسيان بمساعدة ماليتيون وجعلتاه يسير أمامهما ليتخيلانه في بذلة الماركيز بومبادور، ثم انهمك ثلاثتهم في مناقشة عنيفة حول هذه البذلة

وفي اليوم التالي ، كانت هيلين تجلس بمفردها تحت شجرة البلوط ، اما مدام ديبرل فقد اصطحبت جان لوسيان وراحت تجرى بهما هنا وهناك من أجل حفلها الراقص

وعاد الدكتور ديبرل في ذلك اليوم في وقت مبكر على غير عادته . وبعد أن نزل سلم الشرفة الموصل الى الحديقة ، لم يجلس كعادته الى جوار هيلين ، وانما اخذ يدور حولها وهو ينتزع من جذوع الأشجار قشورا صغيرة يلقي بها على الأرض . واستولى على هيلين القلق ، فرفعت عينيها لحظة .. ثم عكفت على ابرتها من جديدبيدين مرتعشتين . واخيرا قالت وهي تشعر بالحرج لصمت الطبيب :

ـ ان الجو يسوء من جديد .. انه بارد هذا المساء

فقال الطبيب وهو يحاول ان يبدو طبيعيا :

ـ اننا لانزال في شهر ابريل

وبدا عليه كما لو كان يريد أن يذهب ، ولكنه عاد يسألها فجأة :

ـ هل ستتزوجين اذن ؟

وفاجأها سؤاله العنيف حتى ان ابرتها سقطت من يدها ، ولكنها لم تقل شيئا ، فعاد يسألها في توسل :

ـ أرجوك .. ردي بكلمة واحدة فقط .. هل ستتزوجين ؟

وعندئذ قالت هيلين ببرود شديد :

ــ ربما ، وماذا يهمك من ذلك ؟

فأشاح بيده في حركة عنيفة ، وصاح يقول :

ــ هذا مستحيل !

فقالت دون أن تكف عن النظر اليه :

ــ لماذا ؟

وحينئذ اضطر الطبيب لان يلتزم الصمت تحت وقع نظراتها التى سمرت الكلمات على شفتيه . وبقى واقفا لحظة أخرى وهو يضع يده على جبينه ، ولما احس بانه يكاد يختنق ، خشى أن يصدر منه شيء خارج عن ارادته ، وفضل أن يذهب ، بينما عادت هيلين الى التطريز .. وهى تتظاهر بالهدوء



كانت هيلين تشعر بشيء ما حينما تجلس مع الطبيب بمفردها .. بالرغم من محاولاته ان يكون حنونا ومطيعا ، وما يبذله من جهد كي يطمئنها . وأحست هيلين بأنها قد فقدت هدوءها الجميل ، وكثيرا ما كان يستولى عليها الاضطراب فتضع تطريزها الى جوارها وتبقى خاملة متعبة اليدين . وكان يبدو ان جميع أنواع الغضب والرغبة قد استيقظت داخل نفسها

ووصل الأمر اخيرا بهيلين الى حد انها كانت تأمر ابنتها بالبقاء الى جوارها ، وكان الطبيب دائما يجد بينه وبينها هذا الشاهداللذى يراقبه بعينيه الكبيرتين الصافيتين

وكان مايؤلم هيلين انها كانت تشعر بالارتباك أمام مدام ديبرل ، فحين كانت تعود هذه الأخيرة من الخارج بصخبها وثرثرتها المعتادة لتقص على هيلين انباء شئونها في المدينة ، لم تعد هيلين تنصت اليها بوجهها الهادىء الباسم كما كانت تفعل من قبل . وحينما كانت مدام ديبرل تمد اليها يدها قائلة « ياعزيزتى » كانت هيلين تشعر بشيء من الخجل والحقد ، ولكنها سرعان ماكانت تتمالك نفسها وتمد يدها لتصافح جولييت

وذات يوم ، قالت مدام ديبرل لهيلين ، وكان الجميع جالسين فى الغرفة اليابانية بالحديقة :

ـ لقد قررنا اقامة الحفل يوم السبت القادم ياعزيزتى .. انتى منهوكة القوى الى أقصى حد ... أليس كذلك ؟ ويجب أن تكونى عندنا فى الساعة الثانية ، لأن جان هى التى ستفتتح الحفل بالرقص مع لوسيان

واستسلمت جوليت لشعور فياض من الحنان والسرور بحفلها ، واندفعت تقبل الطفلين ، ثم أمسكت بهيلين من ذراعها وطبعت على وجنتيها قبلتين كبيرتين ، وقالت وهى تضحك :

ــ هاتان القبلتان هما مكافاتى ، فقد تعبت وجريت بما فيه الكفاية ! وسترين كم سيكون الحفل رائعا !

وبقيت هيلين على سلبيتها ، فى حين كان الطبيب ينظر اليها من فوق راس لوسيان الشقراء .. وكان متعلقا برقبة والده



الفصـل التاسـع

الحفـل ..

في الساعة الثانية من يوم السبت ، وقف الخادم بيير أمام منزل الدكتور ديبرل مرتديا ملابس السهرة ورباط عنق أبيض ليفتح الباب لدى وصول كل عربة من عربات المدعوين

وفي الصالون الكبير ، كانت المصابيح والشموع الضخمةوالثريات البللورية المثبتة في الجدران ، تغمر المكان بضوء ساطع يبهر الأبصار . وكان الدهليز الضيق مزينا بأقواس الورود والزهور والنباتات الخضراء

وحينما دخلت مدام ديبرل في صحبة الماركيز الصغير ندت عن افواه الحاضرين آهة اعجاب ، وتناثرت هنا وهناك عبارات الاستحسان ..

واخذ الصغار يتوافدون تباعا في صحبة ذويهم ، وقالت مدام ديبرل للماركيز الصغير :

ــ هيا ! يجب أن تحيي ضيوفك ..

وتذكر لوسيان الدرس الذى ظل يحفظه ثمانية أيام .. فشد قامته وضم ساقيه الصغيرتين ، ووضع قبعته المثلثة الاركان على ذراعه اليسرى ، واخذ ينحني عند وصول أحد الضيوف فيقدم له ذراعه ، ثم يصحب الضيف الى الصالون ويعود الى مكانه من جديد . وكان يفعل ذلك في جد وجراة ، ودون أن يفقد رباطة جاشه كرجل صغير ، حتى أن المدعوين كانوا يضجون بالضحك !

وفي أحد أركان المنزل ، صاحت مدام ديبرل تقول حينما وقع بصرها على شقيقتها بولين وهي تقف أمام المرآة :

ــ كيف ترتدين ثوبا مفتوحا هكذا ؟

فاجابت بولين تقول في هدوء :

ــ هذا لا يهم ! ان والدى لم يقل شيئا ..

وكانت السيدات تحطن بمدام ديبرل من حين لآخر ، وقد ارتدين ثياب السهرة الفاخرة ، لتهنئتها على هذا الحفل العظيم ، وجاء لوسيان ليسأل والدته قائلا :

ــ أين جان ؟

فقالت والدته :

ــ انها ستحضر حالا يا عزيزى .. حاذر من أن تقع .. أسرع .. هذه ابنة جيرو الصغيرة ، انها ترتدى زى اقليم الالزاس !.. هيا لتحيتها ! ..

كان الاطفال يصلون تباعا في جماعات .. وسرعان ما أخذ الصالون يمتلىء بالضجيج ، وكانت صفوف المقاعد التي رصت في مواجهة الستارة الحمراء الكبيرة كلها مشغولة تقريبا ..

وفجأة صاحت مدام ديبرل تقول :

ــ هذه هي جان .. يا لجمالها واناقتها ..! أين لوسيان ؟

وانبعثت من أفواه المدعوين صيحات خفيفة ، ودخلت جان الى الصالون الكبير ترتدى فستانا على الطراز الياباني

كان الفستان موشى بالازهار والطيور الصغيرة الغريبة ، وكان يغطى قدميها الصغيرتين .. وتظهر من خلال فتحاته جونلة من الحرير الاخضر الموشى بأطراف صفراء . وكان وجهها الرقيق يفيض بالسحر تحت شعرها المصفف على شكل كعكة عالية . وكانت جان بعينيها اللامعتين وذقنها الصغيرة ، تبدو حقا كفتاة يابانية تحلم بالبلاد البعيدة التي ولدت فيها

وكان الصبي الصغير قد لمح جان فاسرع اليها واخذها من ذراعها ، ونسى أن يحييها بالانحناء .. وكانا يبدوان معا كتمثالين ملتهبين دبت الحياة فيهما فجأة

وقال لوسيان يخاطب جان :

ــ انني كنت أنتظرك .. لقد تضايقت كثيرا من مد ذراعي للناس .. هيا نجلس معا ..

وجلس الاثنان في الصف الاول من المقاعد ، ونسى لوسيان تماما

واجباته ، كسيد للبيت !

وقالت جوليت لهيلين :

ـ لقد استولى على القلق حقا ، فقد خشيت أن تكون جان متعبة

واعتذرت هيلين قائلة :

ـ اننا لا يمكن أن ننتهى أبدا مع الصغار

ووقفت هيلين بين جماعة من السيدات فى ركن بالصالون .. وكانت ترتدى ثوبا أسود من الحرير الفاخر ، وكانت من الروعة والجمال بحيث بدت وكأنها ملكة حقيقية !

وكان الدكتور ديبرل قد لمح هيلين فاقترب منها ، ومدت له يدها فصافحها دون أن يجرؤ على أن يضغط عليها . ووقف الطبيب معهن لحظة بدافع من المجاملة ، فقد كانت الآنسة أوريلى بين الحاضرات وارادت أن تشير له على بعض اقربائها الذين دعتهم للحفل

وظهرت مدام ديبرل ، وصاحت تقول لزوجها :

ـ هنرى ! كيف ؟ هل تقف هنا ؟ أننى أبحث عنك فى كل مكان ، لقد قاربت الساعة الثالثة ، ويجب أن تبدأ على الفور ...

ـ بكل تأكيد .. فى الحال

كان الصالون فى هذه اللحظة قد امتلأ من آخره بالناس ، وكان اهالى الاطفال يجلسون بملابس السهرة فى صف واحد ، بينما كانت السيدات يقربن مقاعدهن بعضا لبعض حتى صرن جماعات متفرقة . وكان هناك بعض الرجال الذين فضلوا أن يظلوا واقفين ، وقد أسندوا ظهورهم على طول الحائط مرتدين بدلات «الردنجوت» الفاخرة ...

وكان معظم الضوء مسلطا على مجموعة الاطفال الصاخبة التى تربو على المائة طفل .. امتزجوا ببعضهم البعض فى مرح ، وقد ارتدوا ثيابا مزركشة تبهر النظر بألوانها الحمراء والزرقاء ... وتنكروا فى أزياء البهلوانات والخادمات والباعة وكل ما يخطر على بال انسان !

وكانت الفتيات الصغيرات تجلس كالملكات فى مجموعات صغيرة ، وهن يثرثرن بأصوات عالية حتى لم تعد الواحدة منهن تسمع الاخرى . وكانت جميع العيون مثبتة على الستارة الكبيرة الحمراء

وفجأة ، قرع الدكتور ديبرل ثلاث مرات على باب غرفة المائدة ، وصاح قائلا :

ـ انتبهوا !...

ورفع الستار بغط عن مسرح للعرائس أقيم فى فتحة الباب ، وحينئذ ساد الصمت المكان ، وظهر « الأراجوز » وهو يصرخ بعنف شديد . وكانت احدى هذه التمثيليات المرعبة التى يضرب فيها الأراجوزمندوب الشرطةويقتل ثلاثة من جنودها ، وحينما كان يرفع عصاه العجيبة التى كانت تهوى على الرءوس ، كان المتفرجون يضجون بالضحك .. ويكاد كل منهم يقع على الاخر من فرط السرور ! ..

واقترب الدكتور ديبرل من هيلين وقال لها :

ـ انهم جميعا فرحون !

كان الدكتور ديبرل يجلس خلفها ، وكانت فى سرورها تبدو كطفلة صغيرة ، وكانت الرائحة الذكية التى تتصاعد من شعرها تملأ انفه فتكاد تسكره . وحينما سمعت السيدة الشابة عدة ضربات قوية من عصا الاراجوز التفتت الى الطبيب قائلة :

ـ انه أمر يبعث حقا على التسلية !

وساد الصمت بينهما لحظة .. ثم عادت تقول ، وهى تبحث بعينيها عن ابنتها بين الاطفال :

ـ انني لم أعد أرى جان .. ترى هل هى مسرورة ؟

فانحنى الطبيب ، وقال وهو يقرب رأسه من رأسها :

ـ انظرى .. انها جالسة هناك بين الطفل الذى يرتدى زى البهلوان ، وتلك الصبية التىترتدى ثياب اقليمنورماندى ، وهاأنتذى ترين انها تضحك من صميم قلبها ..

وأحس الطبيب ورأسه بالقرب من هيلين بالحرارة التى تنبعث من وجهها ، ولم يكن أحدهما قد افلت منه أى اعتراف للآخر بما يكنه فى نفسه حتى ذلك الحين ..

والان .. وسط هذا الجو من الفرح وعدم الكلفة ، وبين كل هؤلاء الاطفال ، وتلك الضحكات الجميلة ، وأنفاس « هنرى التى تدفىء رقبتها ، استحوذ عليهما شعور غريب من الاضطراب الذى

ينطوى على شيء من الحرج .. واحست هيلين بانها تستسلم ..

وكانت هيلين تلتفت الى هنرى من حين لاخر ، وتقول له :

ـ يا الهى ! انهم يضربون بشدة !

فكان يجيبهابصوت مرتعد النبرات :

ـ نعم .. ولكن راسه متين !

وانتهت تمثيلية « الاراجوز » وسط عاصفة من الضحكات والتصفيق ، وحينئذ جاءت بولين وهى تقول عبارتها التقليدية :

ـ ها هو ذا ماليتيون الجميل

ووصل ماليتيون لاهث الانفاس ، وصاح يقول بمجرد أن وقعت عيناه على مدام ديبرل :

ـ يا الهى ! انك جعلتنى اتصبب عرقا فى هذا اليوم ! لقد اخذت ابحث عن المغنى بيرديجيز منذ الصباح ، ولما لم استطع العثور عليه احضرت لكم موريزوه العظيم ...

وكان موريزوه هذا حاو بارع من الهواة ، فاستعرض بعض العابه السحرية .. ولكنه لم يثر اية عاطفة فى نفس المتفرجين . ووصل الصغار المساكين هذا الجو من الجد والسكون الذى احاط به الساحر العابه ، فاخذوا يتثاءبون فى تحفظ ، واخيرا تنفس الجميع الصعداء حينما راوا موريزوه العظيم يجمع أدواته ويغادر خشبة المسرح !

وسرعان ما رفعت الستارة التى تفصل غرفة الطعام من الصالون الكبير ، وكشفت عن منظر كان له فعل السحر فى نفوس الاطفال .. فقد كانت المائدة الطويلة محملة بعشاء فاخر ، وكميات كبيرة من الفاكهة والحلوى والشطائر وزجاجات الشمبانيا الصغيرة والطويلة بحسب أحجام الضيوف . وبدت المائدة بضخامتها وبريقها والازهار الجميلة التى نسقت على طرفيهما كشيء خيالى يراه الاطفال فى الاحلام !

ولما فرغ الجميع من تناول العشاء ، تقدمت هيلين من جان ولامتها لانها اكلت اكثر مما يجب ، وحينئذ قالت الصبية لوالدتها :

ـ انى اليوم مسرورة جدا يا أماه !

وبدأت الموسيقى تعزف للرقص .. وبينما كانت هيلين تستعد للعودة الى غرفة الصالون ، أحست بيد تلمس كتفها فى رفق ..

انها يد الدكتور ديبرل الذى كان لا يكاد يتركها دقيقة واحدة
وقال الطبيب :
ـ الا تأخذين شيئا ؟
وانطوت عبارة الطبيب على توسل شديد حتى أن هيلين شعرت باضطراب كبير .. انها كانت تفهم جيدا أن هنرى يريد أن يحدثها فى شىء آخر . واخذ الحماس يغمرها رويدا رويدا وسط هذا المرح الذى يحيط بها والموسيقى العذبة التى تتصاعد أنغامها ،ولكنها قررت أن ترفض دعوته
قالت :
ـ شكرا لك ، لا أريد شيئا بالمرة ..
وعاد الطبيب يلح ، فقالت له وقد أرادت أن تتخلص منه :
ـ حسنا .. أعطنى قدحا من الشاى
وأسرع الطبيب واحضر قدح الشاى ، وقدمه لهيلين بيدين مرتعدتين .. وبينما كانت ترتشف الشاى ، اقترب منها وقد اوشكت شفتاه أن تنطقا بالاعتراف الذى كان يصعد من قلبه . وادركت هيلين ذلك ، فتقهقرت الى الوراء وهى تمد له يدها بالقدح الفارغ ، وانتهزت فرصة انشغاله بوضع القدح على المنضدة وولت هاربة تاركة اياه فى غرفة الطعام . .
واثناء ذلك ، كانت أنغام البيانو تتصاعد فى عنف من أقصى الصالون، حيث كان الصغار يرقصون فى حماس على هيئة دائرة فى وسطها جان ولوسيان
ولم تكد تمضى لحظات على هروب هيلين من الطبيب حتى أحست بأنفاسه تلاحقها من جديد ، وحينئذ ادركت انه كان على وشك أن يتكلم .. فأخذ صدرها يعلو ويهبط فى عنف ، وفى هذه المرة لم تكن لديها القوة لكى تفلت من اعترافه . واقترب الطبيب منها حتى كادت شفتاه تلمس شعرها ، وقال فى صوت خافت يشبه الهمس :
ـ احبك .. احبك !
وأحست هيلين بأنفاسه تحرق راسها وكل جسدها .. يا الهى! لقد تكلم ! انها لن تستطيع بعد ذلك أن تتظاهر بالجهل والهدوء !
واخفت السيدة الشابة وجهها الذى خضبته الحمرة خلف

مروحتها . وكان الاطفال حينئذ يضربون الارض بكعوبهم في حماس وسرعة على انغام احدى رقصات « البولكا » العنيفة . واقترب منها هنري وهمس يقول مرة اخرى :

ـ أحبك .. أحبك !

وارادت هيلين الا تسمع ذلك من جديد ، فلجأت الى غرفة الطعام وقد استولى عليها الذهول .. ولكنها وجدتها خالية الا من السيد لوتلييه والد جولييت ، وكان مستغرقا في نوم هادىء على أحد المقاعد !

وتبعها هنري الى هناك .. وفي هذه المرة واتته الجرأة وأمسك بمعصميها مخاطرا باحداث فضيحة . وكان وجهه قد تغير كثيرا بسبب عاطفته التي بعثت في أوصالها رعدة شديدة ، واخذ الطبيب يكرر لها هاتين الكلمتين :

ـ احبك .. احبك !

وقالت هيلين في صوت واهن :

ـ اتركني ، اتركني ، انك مجنون ...

كانت الرقصة في الغرفة المجاورة قد قاربت مرحلتها الاخيرة . واستطاعت هيلين أن تلمح ابنتها ولوسيان ، وهما يمران وقد لف كل منهما ذراعه حول خصر الآخر ، وحينئذ أفلتت من الطبيب بحركة مفاجئة وولت هاربة الى احدى غرف الخدم المجاورة

وكانت هيلين في حالة لا تسمح لها بالعودة الى الصالون ، فقد كانت عاطفتها مشبوبة .. بحيث يستطيع ان يقرأها على وجهها كل الناس . ولكى تفيق من انفعالها ، أسرعت تعبر الحديقة وصعدت الى مسكنها واصوات الحفل الصاخب تلاحقها من بعيد

الفصل العاشر

بداية الحب

وفى غرفتها العالية التى تشبه الدير ، احست هيلين بانها تكاد تختنق .. فاسرعت تفتح النافذة ، واتكات بمرفقيها على قاعدتها واخذت تنظر الى باريس ، وانفاسها لا تزال تلهث بعد أن صعدت الدرج بسرعة عظيمة

وثبتت هيلين بصرها على ابراج كنيسة نوتردام البعيدة التى كانت اشعة الشمس الساقطة عليها تصبغها بلون الذهب ، ومكثت عدة دقائق وهى تحس بأن رأسها يكاد ينفجر مما فيه من الافكار الصاخبة ..

وقالت هيلين تكرر لنفسها بصوت مرتفع اخذ يخفت شيئا فشيئا: « احبك ! أحبك ! » . وبحركة غريزية ، وضعت يدها على عينيها وضغطت بشدة على جفونها المغلقة لكى تريد الظلام الذى كانت تنغمس فيه . واستحوذت على نفسها الرغبة فى تحطيم نفسها لكى تكون بمفردها فى قاع الظلمات ..

وأخذت باريس تلقى بعبيرها القوى فى وجهها لتهدىء من أنفاسها، وسرعان ما نسيت هيلين كل شيء ، وبدأ « الاعتراف » الذى كان هنرى يظهر فيه فجاة فى صورة واضحة وهو يقترب منها ليميل عليها بشفتيه العصبيتين اللتين تهمسان لها : « أحبك .. أحبك !»

ولم تعد هيلين تسمع سوي هذه الكلمات التى كانت تطن بعنف فى أذنيها ، وتدق كل أعضاء بدنها حتى تكاد تحطم صدرها . ومع ذلك ، فقد كانت تريد أن تفكر فى وضوح ، وتحاول أن تهرب من صورته !

يا الهى ! لقد تكلم .. وهى لن تجرؤ بعد الآن على أن تنظر اليه

وجها لوجه .. لقد أتلفت شراسته كرجل كل المشاعر الحنونة التى كانت تحس بها خلال هذه الساعات الطويلة التى كانا يقضيانها معا فى الحديقة . لقد تكلم واصر على أن يتكلم وكرر لها فى عناد هاتين الكلمتين الحارقتين اللتين يمكن أن توديا بكل حياتها السابقة كأم وزوجة !

ونظرت هيلين الى المدينة الضخمة التى أخذت الغيوم تحجبها حتى أصبحت تبدو كصورة ضخمة قوية رسمها مصور جبار على صفحة الافق . وامام هذا المنظر الكئيب ، أحست هيلين بأنها قد أصبحت قوية للغاية ، ولم تعد صورة هنرى تلاحقها . وتملكتها ثورة عارمة من الغضب والكبرياء ، أخذت تدفعها الى استنكار الشعور الذى استبد بها خلال الاسابيع التى تعرفت فيها بهذا الرجل . كلا ، انها لا تعرفه وتجهل كل شىء من أعماله وأفكاره ، ولاتستطيع أن تتحقق اذا كان على جانب كبير من الذكاء ، بل وربما أيضا ينقصه القلب الكبير أكثر مما تنقصه خفة الروح

واخذت هيلين تستعرض كل هذه الافتراضات ، وهى لا تخرج منها الا بنتيجة واحدة أكيدة ، هى أنها لا تستطيع أن تقرر شيئا لانها تصطدم دائما بجهلها الذى يشبه جدارا سميكا يفصلها من هنرى ويمنعها من أن تعرفه . وافعم كل ذلك قلب السيدة الشابة بالمرارة، فضمت يديها فى يأس وطفرت عيناها بالدموع

واخذت هيلين تنظر الى سطوح المنازل التى كانت أشعة الشمس تنعكس عليها .. انها تود أن تهتم بباريس وأن تنظر اليها فى هدوء مثلما كانت تفعل من قبل كل يوم . وكم من مرة داعب فيها منظر هذه المدينة المجهولة نفس هيلين بأحلام عذبة جميلة !

كانت هذه الاشعة الغاربة تفكك الغيوم وتبددها من سماء باريس، وكان هذا يجعل المدينة كلها تتسق فى مجموعة هائلة من الظلال والاضواء المركشة ، واصبحت الضفة اليسرى من نهر السين لعدة لحظات رمادية اللون ، بينما كانت مجموعة من الاضواء المستديرة الاخرى تتجمد على طول الضفة اليمنى للنهر ، وكأنها جلد حيوان ضخم . وكان شكل السحب يتغير ويتبدل على هوى الرياح التى أخذت تحمل الغيوم الضخمة الى أماكن بعيدة ، وكانت

هذه الغيوم فى حركتها أشبه ما تكون ببحار سوداء يجرى كل منها فى نفس الاتجاه ، وبنفس الانسياب الصامت الجميل !

وبين هذه الغيوم الضخمة ، كانت هناك سحابة كبيرة تمخر عباب الهواء كسفينة القيادة ، وتحيط بها مجموعة أخرى من سحب أصغر حجما ، وكأنها بقية قطع الاسطول الذى يستعد للمعركة !

وفجأة ، خيم على باريس ظل طويل كأنه ثعبان هائل يريد أن يلتهم المدينة كلها .. وحينما تلاشى هذا الظل عند نهاية الافق واصبح فى حجم دودة صغيرة ، اخذ المطر ينهمر فى حى الشانزيليزيه وكانت نقط الماء تبدو فى أشعة الشمس وكأنها تغمر هذا الحى بسيل من الشرر !

وشعرت هيلين بأن قواها قد انهكت تماما بحيث لم تعد تستطيع أن تقاوم قلبها أو تدافع عن نفسها .. انها تستسلم ، ويمكن لهنرى الآن أن يأخذها . وتذوقت هيلين ـ حين احست بأنها قد كفت عن النضال ـ طعم سعادة لا حد لها . وما الذى يمكن أن تتمناه أكثر من ذلك ؟ ألم تنتظر بما فيه الكفاية ؟

والآن ها هى ذى ذكرى حياتها الماضية تملأ نفسها بالغضب والاحتقار . فكيف استطاعت أن تعيش فى هذا البرود الذى طالما امتدت به ؟ وتخيلت هيلين نفسها مرة أخرى فتاة شابة تعيش فى مرسيليا بشارع دى بيتيت مارى الذى كانت ترتعد فيه دائما من البرد . ورأت نفسها وهى تنام كلوح من الثلج الى جوار زوجها .. هذا الطفل الكبير الذى كان يكتفى بتقبيل قدميها العاريتين ، فلا تملك الا ان تغمس نفسها فى خضم همومها المنزلية كربة منزل نشيطة

ورأت هيلين نفسها كذلك بعد أن مات زوجها ، وهى تتبع نفس الطريق ، ونفس الخطوات الرتيبة التى لم تزعج هدوءها أية هزة من الانفعال . حسنا ! لقد كانت تعتقد أنها سعيدة بهذه الحياة الرتيبة التى استغرقت ثلاثين عاما عاشتها وهى تسير دائما الى الامام بقلب صامت ، وليس لديها سوى كبريائها كامرأة شريفة لتسد به فراغ حياتها !.. يا لخداع هذه الصلابة ، وهذا الطهر المتشدد الذى ظل يضعها طيلة حياتها فى سجن الملذات الجدباء

الذى ينعم به المتدينون ! ان حياتها السابقة الطويلة كلها لم تستطع أن تمنحها حتى بعض هذا السرور الذى تذوقته فى الحفل منذ ساعة واحدة !

لقد كانت تنكر السقوط . وتفخر فى بلاهة بأنها سوف تسير هكذا حتى النهاية دون ان ترتطم قدمها بحجر واحد . واليوم هاهى ذى تطالب بهذا السقوط ، بل وتتمنى أن يكون سقوطا عميقا مباشرا .. وها هى ذى ثورة الكبرياء والغضب التى تملكتها منذ قليل تنتهى بهذه الرغبة العارمة . آه ! لو أمكن أن تعوض ما فاتها من لذات .. لقد كانت تبكى فى قرارة نفسها ، وتحس بانقباض وفراغ

واخذت هيلين تدافع عن نفسها : إنها بحبها لهنرى لاتخدع احدا .. اليست مخلوقة حرة من حقها ان تتصرف فى حياتها كما يروق لها ؟ ثم ، الم تكن حياتها نفسها تهيىء لها عذرا ؟ وكيف كانت حياتها منذ عامين تقريبا ؟.. ألم يكن كل شيء فى هذه الحياة يعدها للعاطفة ،ترملها ، ووحدتها ، وحريتها التامة ، وهذه الامسيات الصافية التى كانت تقضيها مع هذين الرجلين البسيطين ، السيد رامبو وشقيقه القسيس ؟

لقد كانت هذه العاطفة نائمة فى أعماق نفسها ، وهى سجينة هكذا فى شقتها بعيدة عن العالم ، وامامها باريس كلها تزمجر فى الافق . كانت العاطفة نائمة فى نفسها حينما كانت تتكىء على قاعدة نافذتها وتستولى عليها احلامها التى كانت تجهل حقيقتها ، والتى كانت تصيبها رويدا رويدا بالرخاوة والخمول . وفجاة تذكرت هيلين صباح ذلك اليوم من شهر فبراير ، حين كانت جالسة على مقعدها الطويل بجوار نافذتها تقرا قصة ايفانهو . وكان الجو حينئذ جميلا وباريس ترقد أمامها وكأنها بللور أشقر ، فأخذت تتأملها فى خمول وقد سقط الكتاب على ركبتها . لقد كان الحب يستيقظ فى صباح ذلك اليوم من الربيع ، وكانت تحس برعدة غامضة لم تعرف كنهها .. ولكنها كانت تظن انها سوف تستطيع ان تقاومها . واليوم ، هاهى ذى تنظر من نفس المكان ، والعاطفة المنتصرة تنهش قلبها بينما شمس الغروب تنعكس على المدينة

وتغيرت السماء ، واخذت الشمس تغرب خلف هضاب

« مودون » ، وكان أسطول الغيوم الصغيرة لا يزال يسبح ببطء وسط زرقة السماء فوق باريس ، بينما كانت تمتد فوق حي مونمارتر شبكة حريرية رقيقة من الغيوم التى وشيت اطرافها بخيوط الذهب .. وقد بدت فتحاتها المنتظمة وكانها تتربص بالنجوم لصيدها بمجرد ان تظهر . وكانت المدينةكلها تمتد تحت قبة السماء التى اشعلتها أشعة الغروب ، فبدت وكأنها على وشك الاحتراق . وفى أسفل ، عند الميدان الواسع ، وعلى طول الشوارع الرئيسية الواسعة ، كانت عربات الركاب التى تجرها الخيول .. وعربات « الحنطور » تتقابل وتتقاطع وسط جمهور المارة الذى يتزاحم كالنمل . وكانت هناك مدرسة لتخريج القساوسة تتألف من عدة مبان متراصة على طول رصيف «بيللى» ، وكان القساوسة الصغار يروحون ويغدون فيها بملابسهم السوداء

كانت باريس تزداد احمرارا كلما انخفضت الشمس فى الأفق ، وكانت أشعة الشمس النارية تشعل زجاج قصر الصناعة الكبير .. فبدا وسط اشجار شارع الشانزيليزيه وكأنه كتلة متوهجة . وابعد من ذلك ، خلف كنيسة المادلين ذات السطح المنبسط ، بدت دار الاوبرا بمبناها الضخم ككتلة من النحاس . وكانت الآثار الاخرى والقباب والابراج وعامود « فوندوم » وكنيسة سان فانسان دى بول ، وبرج كنيسة سان جاك واقرب من ذلك قصر اللوفر الجديد وقصر التويلرى .. كانت هذه الاثار كلها متوهجة بتيجان من اللهب ، وكأنها حرائق ضخمة

وكانت قبة الانفاليد تشتعل بنيران متلألئة حتى كان يخيل للمرء انها يمكن أن تنهار فى أية لحظة وتغطى الحى بأجزائها الملتهبة . اما الابنية التى تطل على قصر «التروكاديرو» فقد كانت كلها حمراء ، وكان زجاجها المتلألىء يقذف قطعا كبيرة من الشرر كما لو كان هناك كور هائل لا يكف الحداد عن النفخ فيه

وفجأة اشتعلت باريس عن آخرها بلهب عنيف ، واصطبغت السماء بلون أحمر قان ، واخذت الغيوم تلمع فوق المدينة الضخمة التى أصبحت ككتلة هائلة من الذهب الاحمر

كانت هيلين تنظر الى هذه المدينة المشتعلة ، وقد استسلمت

لعاطفتها التي تحرق قلبها . وفجأة احست بيد صغيرة على كتفها . وانتفضت هيلين انتفاضة شديدة .. والتفتت خلفها فوجدت ابنتها جان تقول لها :

ـ أماه ! أماه ! هانذا أنادي عليك للمرة العاشرة ! انك اذن لم تسمعي !

كانت الصبية لا تزال ترتدي ثوبها الياباني ، وكانت عيناها تلمعان من فرط السرور . ولم تنتظر جان اجابة من والدتها ، وانما استطردت تقول :

ـ لقد تركتني بطريقة لطيفة .. هل تعرفين انهم بحثوا عنك في كل مكان .. ولولا بولين التي رافقتني حتى أسفل الدرج ، لما استطعت أن أعبر الشارع ؟

وبحركة لطيفة ، قربت الصبية وجهها من شفتي والدتها وقالت تسألها فجاة :

ـ هل تحبينني ؟

وقبلتها هيلين وهي شاردة الذهن ، لان عودة جان بمثل هذه السرعة كانت مفاجاة لها . ترى ، أحقا انقضت ساعة منذ أن هربت من الحفل ؟

واجابت هيلين ابنتها قائلة :

ـ لقد شعرت بتعب خفيف ، وكان يلزمني شيء من الهدوء ، فاردت ان استنشق الهواء

وتمتمت جان تقول :

ـ لا تخشي شيئا يا أمي الصغيرة ، انني أيضا متعبة للغاية وسابقى هنا عاقلة في مكاني ... ولكن هل تاذنين لي بالكلام ؟

وجلست الصبية ملتصقة بوالدتها ، وهي سعيدة لانها لم تخلع لها ثوبها على الفور .. فقد كانت مسرورة بهذا الثوب الموشى بالحرير ، وكانت تهز رأسها الرقيق من حين لآخر كي تستمتع بصوت الدبابيس الطويلة التي تزين شعرها . انها كانت قد انصتت الى كل شيء ، وحفظت كل شيء دار في الحفل على الرغم من مظهرها الذي لا تبدو عليه مخايل الذكاء . والآن ، هاهي ذي تريد ان تعوض عن سلوكها العاقل هناك بالحديث مع امها . قالت الصغيرة :

هل تعرفين يا والدتي ان رجلا عجوزا طيبا ذا لحية بيضاء هو الذي كان يحرك الاراجوز . آه يا والدتي ! هل رأيت الاطفال حينما انقضوا على الجاتوه ؟ انهم سيئو التربية .. اليس كذلك ؟

كانت هيلين لا تنصت الى ثرثرة ابنتها ، ولكن جان استمرت في الحديث وأخذت تسرد كل تفاصيل الحفل . ولذلك استطردت تقول :

ـ انك لا تعرفين يا والدتي ان حزام فستاني حل في بداية الحفل وقد ثبتته لي بدبوس سيدة لا أعرفها ، وقلت لها : « أشكرك كثيرا يا سيدتي » . واثناء رقصي مع لوسيان شكه هذا الدبوس . وحينئذ اكتشفت بولين انه الدبوس فوضعته في مكانه الصحيح ..

وصمتت جان لحظة ، ثم اضافت تقول :

ـ ان الجميع كانوا يتزاحمون اثناء الرقص ، وقد اصطدم صبي طويل القامة بطفلة صغيرة ، وكادت ان تقع على الارض . وكانت بنات « لوفاسور » تقفزن اثناء الرقص واقدامهن مضمومة ! ان المرء لا يرقص هكذا بكل تاكيد ! ولكن اجمل شيء كان في النهاية .. انك لم تكوني هناك .. لقد امسك كل واحد بذراع الآخر ، وأخذنا نرقص وندور حتى كدنا نموت من الضحك .. وحتى السادة الكبار في السن ، كانوا يدورون ايضا .. فهذه هي الحقيقة ! لماذا لا تريدين أن تصدقينني يا أمي الصغيرة ؟

وغضبت الصبية من صمت أمها ، فازدادت التصاقا بها واخذت تداعب يدها .. وحينما رأت انها لا تستطيع أن تخرجها من صمتها ، اخلدت الى الصمت شيئا فشيئا ، واكتفت بالتفكير في هذا الحفل الذي كان يملأ قلبها الصغير . وهكذا جلست الام وابنتها صامتتين وأمامهما المدينة المشتعلة التي كانت بمنظرها ذاك تبدو كمدينة اسطورية تكفر عن أخطائها تحت مطر من النار ..!

وفجأة قالت هيلين تسأل ابنتها في اهتمام ، وكأنها تستيقظ من حلم :

ـ هل تقولين أنهم رقصوا في دائرة ؟

فقالت جان في حماس ، وقد سرت باهتمام والدتها :

ـ نعم .. نعم .. وكأن هذا مضحكا للغاية !

وعادت هيلين تقول :

ـ وهل رقص الطبيب ؟

فقالت جان :

ـ بالطبع .. انه كان يدور معى ، وقد رفعنى بذراعيه وسألنى: « اين والدتك » ؟.. ثم قبلنى ..

وابتسمت هيلين دون وعى منها ، فهل كانت فى حاجة لان تعرف هنرى ؟ لقد كان يبدو لها انه من الافضل ان تجهله دائما . ولكن لماذا يجب ان تدهش او تقلق ؟ لقد ظهر هنرى فى طريقها فى الساعة المكتوبة ، وهذا شىء جميل بالطبع !

واخذ الهدوء يسرى فى نفسها عندما راودتها هذه الفكرة الاخيرة .. فقد كانت طبيعتها الصريحة تقبل الاشياء كما هى : انها تحب وهى محبوبة ، وانها سوف تكون قوية بما فيه الكفاية كى لا تدمر سعادتها ..

وكان الليل يسدل أستاره أثناء ذلك ، وهبت فى الجو نفحة ريح باردة جعلت الصبية الصغيرة ترتعد ، فوضعت رأسها على صدر امها، وقالت تسألها مرة أخرى .. وكأن هذا السؤال يرتبط فى ذهنها بأفكار غامضة عميقة :

ـ هل تحبيننى يا أمى ؟

وامسكت هيلين ، وهى تبتسم ، براس ابنتها بين يديها ، وبدا عليها انها تنظر الى وجهها ، ثم وضعت شفتيها بجوار فم الصبية وفوق علامة صغيرة وردية اللون ، فقد كانت تعلم تماما ان هنرى قد قبل ابنتها هنا

فى هذه اللحظة ، كانت أشعة الشمس تموت على زجاج النوافذ المعتم ، وبدت المنازل كما لو كانت تتحول الى رماد . وكانت هناك اجراس بعيدة تدق . وفجاة ، اشتعل الحريق من جديد . وتوهجت باريس لحظة للمرة الاخيرة . وامتد هذا الوهج حتى أضاء الضواحى البعيدة . وفى النهاية ، انتهى هذا الوهج وبدت أحياء المدينة سوداء اللون كفحم منطفىء

الفصل الحادى عشر

شهر العذراء

فى صباح يوم من شهر مايو ، جاءت روزالى تهرول من مطبخها دون ان تترك خرقتها من يدها ، وصاحت تقول فى غير كلفة كخادم مدللة :

ـ تعالى بسرعة يا سيدتى ... ان السيد القسيس فى حديقة صديقه الطبيب ينبش الارض !

ولم تتحرك هيلين من مكانها ، ولكن جان هرولت الى المطبخ ، ولم تلبث أن عادت تقول لوالدتها :

ـ يالحماقتها ! .. انه لا ينبش الارض ،وانما يقف مع البستانى الذى يضع النباتات فى عربة صغيرة ... وهناك مدام ديبرل تقطف ازهارا كثيرة

فقالت هيلين فى هدوء ، وهى مشغولة بتطريز سجادة صغيرة :

ـ لابد أن ذلك من أجل الكنيسة

ولم تكد تنقضى بضع دقائق حتى دق القسيس جوف الجرس . لقد جاء ليخبر هيلين بأنه لن يستطيع الحضور يوم الثلاثاء التالى اذ أنه سيكون مشغولا طيلة الوقت باحتفالات شهر السيدة العذراء ، وقد كلفه رئيسه بتزيين الكنيسة على نحو رائع . واخبرها بأن كثيرا من السيدات اعطينه أشجارا وورودا كثيرة ، وانه فى انتظار نخلتين طول كل منهما أربعة أمتار لكى يضعهما على جانبى المذبح

وكانت جان تنصت الى حديث القسيس فى شغف عجيب

وقالت هيلين وهى تبتسم للقسيس :

ـ حسنا يا صديقى ، بما أنك لا تستطيع الحضور فسوف

تذهب اليك ... وها نتذا قد ادرت رأس جان بباقات ورودك وأشجارك

والواقع ان هيلين لم تكن شديدة التدين ، وكانت لا تذهب الى القداس معتذرة باعتلال صحة ابنتها التى كانت تخرج من الكنائس وجسمها ينتفض . وكان القسيس العجوز من ناحيته يتجنب ان يحدثها فى الدين ، وكثيرا ما كان يقول لها فى بساطة وطيبة ان الارواح الجميلة تنقذ نفسها بنفسها ، وأن الله سيشملها بعطفه فى يوم من الايام

ولم تفكر جان حتى مساء اليوم التالى الا فى شهر السيدة العذراء ، وظلت تحدث والدتها طيلة الوقت عن ذلك ، وتحلم بالكنيسة التى امتلأت بالازهار البيضاء ، والتى تضيئها آلاف من الشموع ، وتغنى فيها أصوات الملائكة ، ويعبق جوها بالروائح الجميلة ...

وكانت جان تريد أن تكون قريبة من المذبح كى ترى جيدا ثوب السيدة العذراء المصنوع من الدانتيل ، والذى قال عنه القسيس انه يساوى ثروة كاملة . ولكن هيلين كانت تهدىء الصبية ، وهددتها بانها لن تأخذها الى هناك اذا مرضت قبل ذلك

واخيرا ، خرجت هيلين مع ابنتها فى المساء بعد تناول طعام العشاء ، وكان الجو لايزال رطبا . ولما وصلا الى شارع «الانونسيا ـ سيون » حيث توجد كنيسة « نوتردام دى جراس » كان جسم الصبية يرتعد ، فقالت والدتها :

ـ ان بالكنيسة مدفأة ، وسنختار ركنا يشيع منه الدفء ..

وحينما دفعت هيلين الباب المبطن هب فى وجهها دفء جميل ، وكانت الاهازيج الدينية والاضواء الشديدة تملأ المكان ، اذ كان الاحتفال قد بدا منذ وقت يسير . ولما رأت هيلين أن الجزء الاوسط من الكنيسة غاص بالناس ، ارادت أن تتبع احدى جوانب الكنيسة السفلى ، ولكنها وجدت فى طريقها صعوبات جمة تحول دون الاقتراب من المذبح ، وكانت تمسك بجان من يدها طيلة الوقت .. واخيرا عدلت عن فكرة الذهاب أبعد من ذلك ، وجلست هى وابنتها على أول مقعدين خاليين ، وكان امامهما عامود كبير يكاد

يحجب عنهما نصف فرقة الترتيل

وتمتمت جان تقول فى حزن شديد :

ـ لست أرى شيئا يا أماه .. اننا نجلس فى مكان سيىء للغاية

واشارت هيلين اليها بأن تصمت ، وكانت جان لا ترى أمامها سوى ظهر سيدة عجوز ، وحينما التفتت اليها والدتها بعد لحظات وجدتها واقفة على مقعدها ، فقالت لها هيلين وهى تخنق صوتها :

ـ تعالى اجلسى فى مكانك ... انك لا تحتملين الوقوف . ولكن جان لم تطعها ، وقالت بعد أن لمحت مدام ديبرل :

ـ انظرى يا أماه ! ان مدام ديبرل تجلس هناك فى الوسط وهى تشير لنا



وكانت هيلين منذ ليلة الحفل ، أى منذ ثلاثة أيام ، قد تجنبت الذهاب الى منزل الدكتور ديبرل محتجة بكثرة مشغولياتها ، ولذلك فقد تضايقت وهزت جسم ابنتها الصغيرة التى كانت ترفض الجلوس ، والتى استمرت تقول فى عناد :

ـ انها تنظر اليك يا أماه ! وهى تحييك بهزة من رأسها ، فاضطرت هيلين الى أن تنظر الى مدام ديبرل وتبادلها التحية .. وكانت زوجة الطبيب ترتدى ثوبا حريريا موشى بالدانتيل الابيض .. وكانت جالسة على بعد خطوتين من فرقة الترتيل ، وقد بدت نضرة ملفتة للانظار ، ومعها أختها بولين التى شرعت تشير بيديها

كان الترتيل مستمرا ، وكان الجمهور بصوته الغليظ يرتل مع المنشدين ، فى حين كان صوت الاطفال الرفيع واضحا يرتفع هنا وهناك . واستطردت جان تقول :

ـ انهما يشيران الينا بأن نذهب الى هناك .. هاتتدى ترين هذا بعينيك !

فقالت أمها :

ـ لا فائدة من ذلك .. اننا هنا فى مكان جميل

وعادت جان تقول :

ـ هيا بنا الى هناك يا أماه .. فان هناك مقعدين !

فقالت هيلين فى لهجة آمرة :

ـ كلا ، انزلى واجلسى على المقعد

ولكن جوليت وشقيقتها كانتا تلحان بالاشارات والابتسامات دون أن يبدو عليهما أنهما تهتمان « بالفضيحة الصغيرة » التى تحدثانها ، بل على العكس كانتا مسرورتين برؤية الناس ينظرون اليهما . ومن ثم فقد اضطرت هيلين أخيرا ان تقلع عن اصرارها ، ودفعت أمامها ابنتها التى كادت تطير من الفرح .. وحاولت أن تشق لنفسها طريقا ، وقد استولى عليها غضب شديد مكبوت

ولم يكن عملها هذا سهلا .. فقد كانت النساء التقيات لا تردن ان تتحركن من مكانهن ، وكن يتفرسن فى وجه السيدة الشابة وابنتها دون أن تتوقف أفواههن عن الانشاد . واستمرت هيلين تجاهد حتى استطاعت بعد خمس دقائق أن تقترب من فرقة الترتيل التى أخذت أصواتها تعلو رويدا رويدا كالرعد . وكانت جان طيلة الوقت تنظر الى هذه الافواه الفاغرة وقد ازدادت التصاقا بوالدتها . وأخيرا وصلت هيلين الى المساحة الفارغة الموجودة أمام الفرقة ، ولم يعد أمامها سوى بضع خطوات

وتمتمت مدام ديبرل تقول :

ـ هيا اجلسا اذن .. لقد قال لى القسيس انكما سوف تحضران، وقد حجزت لكما هذين المقعدين

وشكرتها هيلين ، وفتحت على الفور كتاب قداسها كى تضع نهاية حاسمة لثرثرة جوليت ، ولكن هذه الاخيرة ظلت تحتفظ برقتها ، وكأنها تجلس وسط مجتمع راق بأحد الصالونات . وكانت تتحدث وفق هواها ، ولذا فقد انحنت على هيلين واستمرت فى حديثها قائلة :

ـ اننا لم نعد نراك ، وكان فى نيتى أن أذهب اليك غدا .. ارجو الا يكون ما يحجبك عنا هو المرض ؟! انك لم تكونى مريضة على الاقل

ـ كلا ، شكرا .. ولكن مشغولياتى كثيرة

فقاطعتها جوليت قائلة :

ـ اسمعي .. يجب أن تأتي الينا غدا لتناول العشاء مع الاسرة، على الرغم من أننا ..

فقاطعتها هيلين تقول :

ـ انك لطيفة للغاية ، وسوف أفكر في ذلك ..

وبدا على هيلين انها قد صممت على الا تذهب في الرد عليها أبعد من ذلك ، وكانت بولين قد أجلست جان الى جوارها كي تقاسمها المكان الذي يشع منه الدفء . وأخذت الفتاتان تفحصان كل شيء في الكنيسة في فضول : السقف المنخفض المقسم الى أجزاء ، والاعمدة التي تتدلى بينها الثريات ، والمنبر المصنوع من خشب البلوط المنحوت

ونظرت الفتاتان مدة طويلة الى الاركان البعيدة من الكنيسة التي تلمع بألوان ذهبية ، والى مكان التعميد الذي يحيط به سياج كبير بجوار الباب ، ولكنهما كانتا دائما تعودان ببصرهما الى المكان المتلالىء الذي يقف فيه المنشدون ، وكان مدهونا بألوان ذهبية باهرة، وتضيء قبته ثريا ضخمة من البللور ، ومجموعة كبيرة من الشمعدانات التي يتجمع ضوؤها على المذبح الرئيسي ..

كانت الكنيسة كلها وكأنها باقة من الازهار والاضواء .. وهناك ـ في مكان عال ـ كان يقف تمثال السيدة العذراء وعليه ثوب من الحرير الموشى بالدانتيل ، وكانت متوجة باللآلىء وتمسك بين ذراعيها بالطفل يسوع

وقالت بولين تسأل جان :

ـ هل تشعرين بالدفء ؟ ان الجو هنا جميل جدا

ولم تجب جان بشيء فقد كانت تتأمل تمثال السيدة العذراء الذي يقف بين الزهور . وكانت الصبية تشعر برجفة وتريد ان تبدو عاقلة في هذا المكان .. فخفضت عينيها ، وهي تحاول ان تصرف نفسها الى تأمل البلاط الابيض والاسود كي تمنع نفسها من البكاء. وكانت أصوات المنشدين من الاطفال ترسل الى شعر رأسها قشعريرة خفيفة

وأثناء ذلك كانت هيلين تثبت بصرها على قسيس أبروشيتها .. وكان جسمها يقشعر كلما لمس ثوب جولييت الموشى بالدانتيل .

والواقع ان هيلين لم تكن قد استعدت لهذا اللقاء . وعلى الرغم من القسم الذى اخذته على نفسها بالا تحب هنرى الا حبا قدسيا ، ودون ان تعطيه نفسها أبدا ، كانت تحس بشىء من الضيق وهى تفكر فى أنها تخون هذه المرأة المرحة التى تجلس واثقة الى جوارها

ولم يكن يشغل بالها غير فكرة واحدة : يجب الا تذهب الى هذا العشاء ، وتحاول ان تقطع علاقتها شيئا فشيئا بأسرة الدكتور ديبرل .. هذه العلاقة التى تأباها طبيعتها الصريحة ، ولكن اصوات القساوسة الصغار العالية كانت تقطع عليها تفكيرها .. ولما لم تجد شيئا تفكر فيه ، أخذت تستسلم رويدا رويدا للذة الاستماع الى هذه التراتيل التى جعلتها تتذوق حلاوة التدين .. الامر الذى لم تشعر به من قبل فى اية كنيسة اخرى

وسألتها جولييت التى لم تستطع ان تقاوم رغبتها فى الثرثرة :

ـ هل قصوا عليك قصة مدام دى شارليت ؟

فقالت هيلين :

ـ كلا .. لست أعرف شيئا عنها

فقالت جولييت :

ـ حسنا ، تصورى .. هل رأيت ابنتها التى لا يناسب طولها سنها ؟.. انها فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها ، ومع ذلك ، فقد قرروا ان يعقدوا قرانها على هذا الفتى القصير الاسمر الذى نشاهده ملتصقا بوالدته على الدوام .. وقد صارت هذه المسألة مثار حديث فى كل مكان

فندت عن هيلين آهة ، برغم انها لم تكن تنصت اليها ..

واخذت جولييت تدلى بتفاصيل اخرى ، وفجأة كف الارغن عن العزف ، وتوقفت التراتيل ، فأخلدت جولييت الى الصمت وقد استولت عليها الدهشة لارتفاع صوتها وسط هذا السكون التام الذى ساد المكان

وظهر على المنبر احد القساوسة وبدأ الكلام .. واستغرقت هيلين فى افكارها من جديد وقد ثبتت عينيها على القسيس .. انها كانت تتخيل لقاءها الاول مع هنرى بعد ان صرح لها بحبه ، هذا اللقاء الذى كانت تخشاه . وكانت تتخيله شاحبا من الغضب ،

ويوجه اليها لوما منيفا لانها ظلت تسجن نفسها فى شقتها ثلاثة أيام . وكانت من ناحيتها تخشى الا تظهر برودا كافيا ..

واختفى القسيس ، وهى غارقة فى أحلامها حتى لم تعد تسمع سوى بعض عبارات متناثرة ، وصوتا عاليا يأتى من على المنبر ، وكأن صوتا ثاقبا يقول : « لقد كانت لحظة لا تنسى ، هذه اللحظة التى احنت فيها السيدة العذراء راسها واجابت قائلة : ها هى ذى خادمة الحرب »

انها ستكون شجاعة .. لقد ثابت الى رشدها ، وستكتفى بأن تتذوق لذة ان تكون محبوبة فى صمت ، وهى لن تعترف له أبدا بحبها العميق ولن تصرح به ، ويكفيها نظرة من هنرى او كلمة تتبادلها معه من حين لآخر كلما جمعت الصدفة بينهما !

ثم جاءها صوت القسيس يقول : « واختفى الملاك ، وانغمست مريم تماما فى تأمل المعجزة الالهية التى كانت تحدث أمامها ، وقد غمرها نور الحب .. »

وتمتمت مدام ديبرل تقول ، وهى تنحنى على هيلين :

ــ انه يتحدث بطريقة ممتازة على الرغم من انه لا يكاد يبلغ الثلاثين من عمرة .. أليس كذلك ؟

وكانت مدام ديبرل تبدو متأثرة ، فقد كانت العظات الدينية تؤثر فيها ، وكأنها انفعال لذيذ الطعم .. ان تزويد الكنيسة بالازهار ، وعلاقاتها الصغيرة مع القساوسة ، وهم أناس مؤدبون يحفظون السر ، وذهابها الى الكنائس فى أبهى حلة ، وتظاهرها بمنح حمايتها للفقراء كسيدة من الطبقة الراقية .. كل ذلك كان يسبب لها سرورا خاصا .. ولا سيما أن زوجها كان لا يهتم بالطقوس الدينية ، ومن ثم فقد كان تدينها يأخذ طعم فاكهة محرمة

ونظرت اليها هيلين ، ولم تجب عليها الا بهزة بسيطة من راسها

وارتفعت فى المكان ضوضاء كبيرة انبعثت من المقاعد والمناديل التى أخذت ترتفع الى الأنوف .. اذ كان القسيس قد غادر المنبر وهو يردد هذه الفقرة الاخيرة : « أيها الاتقياء ، املئوا قلوبكم بالحب .. لقد وهبكم الله نفسه ، فاجعلوا قلوبكم تمتلىء بوجوده وأرواحكم تفيض برحمته ! »

وفى الحال ، تصاعدت من الارغن نغمات عذبة آتية من الجوانب السفلى فى الكنيسة ومن ظلال الأركان البعيدة ، ومرت فى المكان نفحة دافئة من الهواء جعلت لهب الشموع يزداد طولا ، بينما كانت السيدة العذراء فى باقتها الكبرى بين الزهور التى كانت تبعث فى الجو رائحتها القوية ، وقد أحنت رأسها وكأنها تبتسم لابنها يسوع الطفل

والتفتت هيلين خلفها ، وقد استحوذ عليها قلق غريزى مفاجىء .. وقالت تسأل ابنتها :

ــ جان !.. هل انت مريضة ؟

كانت الصبية بيضاء كالثلج .. تبدو بعينيها الدامعتين وكأنها محمولة على نغمات الأرغن الجارفة .. وقد استغرقت فى تأمل المذبح المغطى بالأزهار . وتمتمت جان تقول :

ــ كلا يا أماه ! أؤكد لك اننى سعيدة للغاية ..

وبعد لحظة ، قالت الصبية تسأل أمها فجأة :

ــ اين الآن صديقنا الطيب يا أماه ؟

كانت جان تتحدث عن القسيس جوف ، وكانت بولين تراه من مكانها واقفا مع المنشدين ، فاضطروا الى رفع جان حتى تتمكن من رؤيته . وعندئذ قالت فى سرور :

ــ انى أراه ، ها هو ذا ينظر الينا بعينيه الصغيرتين !

وتبادلت هيلين مع القسيس جوف تحية ودية بالرأس ، وجعلها هذا تحس بسعادة قصوى ، وبأن الكنيسة مكان هادىء يفيض بالاخلاص . واهتزت المباخر ، وتصاعد منها دخان خفيف ، واخذ المطران يبارك المصلين بصولجان يشبه قرص الشمس . وظلت هيلين خاشعة وقد استولى عليها خمول هادىء لطيف ، وحينئذ جاءها صوت مدام ديبرل يقول :

ــ لقد انتهينا ، فلنرحل ..

وأخذت أصوات المقاعد والأقدام تتردد فى قبة الكنيسة ، وكانت بولين تمسك جان من يدها والصبية تسير من خلفها . وسألتها بولين تقول :

ـ الم تذهبي ابدا الى المسرح ؟
فأجابتها جان قائلة :
ـ كلا .. هل هو اجمل من هذا ؟
نطقت جان بهذه العبارة ، وكأنها تستنكر آن من الممكن ان يكون هناك ماهو اجمل من الكنيسة .. ولم تجب بولين بشيء . وفي هذه اللحظة مر القسيس الواعظ أمام الفتاتين ، وكان يرتدي رداءه الكهنوتي الطويل . ولما صار الرجل على مقربة بضع خطوات من جان ، قالت الصبية بصوت عال ينم عن احترام عميق : « آه ! يا لرأسه الجميل ! »
وأثناء ذلك ، كانت هيلين قد نهضت واخذت تشق طريقها هي وجولييت بصعوبة وسط الجمهور الغفير الذي كان يغادر الكنيسة، وكان قلبها يفيض بشعور جارف من الحنان ، حتى بدت متعبة منهوكة القوى . ولم تعد هيلين تشعر بأي اضطراب وهي تسير هكذا بالقرب من جولييت . وفي لحظة، تلامست يداهما فابتسمت كل منهما للأخرى ، وعاد رفع الكلفة بينهما أكثر من ذي قبل
وقالت مدام ديبرل تسأل هيلين :
ـ لقد اتفقنا .. أليس كذلك ؟ إننا في انتظارك للعشاء غدا مساء ..
ولم تعد هيلين تحس بالرغبة في أن ترفض دعوة مدام ديبرل . وعلى أية حال ، فقد قررت أن تفكر في الأمر اثناء سيرها في الشارع
وخرجت الاثنتان من الكنيسة آخر الامر ، وكانت بولين وجان في انتظارهما على افريز الشارع . وفجأة ، وقف الجميع على صوت يشبه البكاء يقول صاحبه :
ـ آه يا سيدتي العزيزة .. لقد انقضى زمن طويل لم أسعد فيه برؤيتك !
وعرفت هيلين صاحبة الصوت على الفور . لقد كانت الام فيتو تتسول على باب الكنيسة . وبدا كما لو أن المرأة كانت تتربص بهيلين .. واستمرت تقول :
ـ لقد كنت مريضة جدا ياسيدتي .. انني اتألم هنا في بطني

كما تعرفين . لقد أصبح الألم كضربات « القادوم » ولا شيء يجدي في ايقافه يا سيدتي الطيبة.. اعذريني يا سيدتي ، وليرد الله لك جميع حسناتك !

وضعت هيلين على الفور قطعة من النقود في يد المرأة ووعدتها بأن تفكر فيها . وصاحت مدام ديبرل تقول وهي لاتزال واقفة عند مدخل الكنيسة :

ـ انظري .. ان شخصا يتحدث مع جان وبولين .. يا الهي ! انه هنري !

واستمرت الأم فيتو تقول :

ـ نعم ، نعم .. انه الطبيب الطيب القلب .. وقد رايته واقفا على الافريز طيلة الاحتفال . لا بد انه كان في انتظاركما .. يا الهي! انه رجل قديس .. انني اقول ذلك لانه حق ، والله الذي يسمعنا الآن شهيد على ما أقول

كانت المرأة العجوز تنقل عينيها الصغيرتين الماكرتين دائما بين جولييت وهيلين بحيث لا يستطيع المرء أن يحدد لمن منهما كانت توجه حديثها عن الدكتور ديبرل !



دهشت هيلين وتاثرت كثيرا لأمارات التحفظ البادية علىهنري .. انه لم يجرؤ حتى على أن يرفع بصره اليها . وحينما اخذت جولييت تمرح معه بشأن آرائه التي تمنعه من الدخول الى الكنيسة .. شرح لها ببساطة انه قد جاء لاصطحابهما ، وليس لزيارة الكنيسة . وفهمت هيلين انه لم يات الا بقصد رؤيتها مرة اخرى كي يثبت لها أنها تخطىء اذ تخشى ان يصدر منه سلوك ينطوي على عنف جديد ، واحست هيلين بانه قد عاهد نفسه على أن يكون عاقلا .. ولكنها لم تستطع أن تجزم بما اذا كان في مقدوره ان يظل حافظا لعهوده أم لا ، فقد كان يبدو تعسا ، وكان هذا يجعلها تعسة بدورها . وعلى اية حال ، فقد قالت هيلين في مرح وهي تودع اسرة ديبرل عند شارع فينوس :

ـ حسنا ! اتفقنا .. الى اللقاء غدا في السابعة مساء

وتوثقت العلاقات بين هيلين واسرة الدكتور ديبرل اكثر من

ذى قبل . وبدا هنرى لهيلين شـخصا آخر غير الذى استسلم لحظة لنزوة جنونية . وبالنسبة لهيلين ، كانت هذه الحياة لطيفة للغاية . الم تكن تحلم بأن يحب كل منهما الآخـر دون أن يصرح أحدهما بشيء ؟ ألم تكن ساعات جميلة تلك التى كانا يقضيانها معا دون أن ينطق أحدهما بكلمة واحدة عن العاطفة التى تشـتعل فى قلبه ؟

واتفقت هيلين ومدام ديبرل على الذهاب الى الكنيسـة كل مساء ، ووجدت جوليت لذة كبيرة فى هذه المتعة الجديدة التى تختلف بعض الشيء عن متعة الحفلات الراقصة وحفلات العرض الاولى للمسرحيات ، فقد كانت هـذه السـيدة مولعة بالانفعالات الجديدة من اى نوع كان . ولم يعد يقابلها أحد الا ويراها فى رفقة القساوسة والراهبات . ان الرصيد الدينى الذى ظلت تحتفظ به هذه السيدة منذ إن كانت تلميذة بالقسم الداخلى فى مدرسة الراهبات ، ظهرت أعراضه عليها فجـأة .. فأخذت تؤدى بعض الفرائض والطقوس الدينية الصغيرة ، وتجد فى ذلك تسلية كبيرة، وكأنها تذكرت بعض الألعاب التى حفظتها فى طفولتها ! اما هيلين التى كبرت فى بيئة بعيدة عن كل تربية دينية عميقة، فقد استسلمت للسحر الذى ينبع من طقوس شهر السـيدة العذراء ، وكانت مسرورة بأن ترى ابنتها جان سعيدة بدورها ، لاشتراكها فى هذه الطقوس

وكانت هيلين وابنتها تتناولان طعام عشـائهما فى وقت مبكر ، ثم تمران على مدام ديبرل لاصطحابها معهما الى الكنيسـة . وعند دخولهن الى الكنيسـة الدافئة التى تضيئها الشموع ، كان يستحوذ على هيلين شعور بالهدوء والخمول .. وقد اصبح هذا الشعور شيئا فشيئا ضرورة بالنسـبة لها . واذا حـدث وفكرت هيلين أثناء النهار فى هنرى ، أو اعترتها بعض الشكوك من جـراء هـذا التفكير ، كانت الكنيسة تشيع فى نفسها الهدوء فى المساء . وكانت التراتيل المتصاعدة ، والأزهار التى تملأ جو الكنيسـة بعبيرها ، وتمثال السيدة العذراء المتوج بالورود البيضاء ، كل ذلك كان يبعث

فى نفسها نشوة دينية عميقة ، وبسُكرها بمعجزة الحب الطاهر النقى

وكانت هيلين تبقى كل يوم راكعة فى الكنيسة مدة اطول من ذى قبل ، وكثيرا ما كانت تفاجىء نفسها وقد ضمت قبضتى يديها الى صدرها . وبعد ان تنتهى من الحفل الدينى ، كانت متعة العودة مع هنرى الذى يقف بالباب فى انتظارها . وكان الجو فى الليل يصبح دافئا بعض الشىء ، فيعود الجميع من طريق شوارع حى باسى المظلمة الساكنة . وأثناء العودة ، لم يكن كل من الطبيب وهيلين يتبادلان الا كلمات قليلة ..

وذات مساء ، قالت مدام ديبرل لهيلين وهى تضحك :

ـ لقد اصبحت شديدة التقوى يا عزيزتى !

وكان هذا صحيحا .. فقد كانت هيلين تدع الايمان يتسرب الى قلبها المفتوح على مصراعيه ، ولم يكن قد جال بخاطرها ان الحب فى ظل الايمان يمكن أن يكون جميلا هكذا . ان هذه الساعة التى تقضيها فى عبادة صامتة بالكنيسة كل مساء ، كانت تسمح للحب الذى تكبته فى نفسها طيلة النهار بأن ينبثق من صدرها اثناء الصلاة أمام الجميع . وكانت هذه السجدات والدعوات والتحيات ، وهذه الكلمات والحركات الغامضة التى تتكرر على الدوام ، تداعب روحها وكأنها اللغة الوحيدة التى تفهمها . لقد كانت هيلين فى حاجة الى الايمان ، وكانت تشعر بانها مبهورة ومسحورة امام رحمة الله

لم تكن جولييت تمزح قط مع هيلين ، وكانت كثيرا ما تردد أن هنري قد أصبح تقيا بدوره . ألم يكن يدخل لانتظارهما فى داخل الكنيسة ، وهو الرجل الذى كثيرا ماصرح بأنه ظل يبحث عن الروح بطرف مشرطة ، فلم يجدها ؟ وكانت جولييت كلما تلمحه واقفا خلف أحد الاعمدة ، تدفع هيلين من كوعها وتقول لها :

ـ انظرى اذن .. انه هنا .. انك لابد تعرفين أنه لم يرد ان تعترف الكنيسة بزواجنا ، ولكنه الآن هنا ... يا الهى ! انه يتاملنا بنظرات غريبة ... انظرى !

وكانت هيلين لا ترد عليهـا او تلتفت وراءها .. ولكن بما أن

جولييت لم تكن من النوع الذى لايمكن ان يدع هيلين وشانها فقد كانت هذه الاخيرة تضطر الى ان تجيبها قائلة بصوت خافت ، ودون أن تلتفت للخلف :

ـ نعم ، نعم .. اننى أراه

كانت هيلين تحس بوجوده من خلال انفاسه التى كان يخيل لها انها تصل اليها لتلمس رقبتها محمولة على اصوات التراتيل وانغام الارغن . وفى بعض الاحيان ، كانت تعتقد انها ترى نظراته من خلفها تضيء وسط الكنيسة ، وتحيطها اثناء سجودها باشعة من نور . وبعد الانتهاء من الصلاة ، كانوا يخرجون من الكنيسة وسط هذا الجمع الحاشد من السيدات التقيات .. وحينئذ كانت هيلين تحس بأن علاقتها بهنرى قد ازدادت رسوخا ، وكانا يتجنبان الحديث مع بعضهما ، لان قلب كل منهما كان على شفتيه

ولم تستطع جولييت أن تواظب على هذه العبادة اكثر من خمسة عشر يوما ، فقد كانت هذه السيدة لا تطيق ان تجرى حياتها على وتيرة واحدة . وهاهى ذى الآن تنهمك بكل قواها فى البيع لصالح المبرات والجمعيات الخيرية ، وتصعد كل يوم اكثر من ستين طابقا كى تتسول بعض اللوحات من كبار الرسامين ، وتقضى كل أمسياتها فى رئاسة اجتماعات سيدات المبرات .. وقد امسكت بيدها جرس صغير

وذات مساء يوم من أيام الخميس ، وجدت هيلين نفسها مع مع ابنتها جان بمفردهما فى الكنيسة . وأحست هيلين بعد أن انتهى القسيس من عظته بان قلبها يحدثها بشيء .. ولما أدارت راسها أبصرت هنرى واقفا فى مكانه كعادته ، وحينئذ بقيت هيلين منكسة الراس حتى نهاية الاحتفال الدينى فى انتظار العودة !

وصاحت جان تقول للطبيب بعد الخروج من الكنيسة :

ـ كم انت لطيف لانك حضرت لتصطحبنا ! اننا كنا سنخاف فى هذه الشوارع المظلمة !

وتظاهر هنرى بالدهشة لانه لم يجد زوجته . أما هيلين ، فقد تركت جان تثرثر معه وتبعتهما دون أن تتكلم . وماكاد ثلاثتهم

يبتعدون من الكنيسة بضع خطوات حتى تناهى الى أسماعهم صوت يقول فى مزيج من البكاء والتوسل ..

ــ احسان .. احسان .. فليرده الله اليكم مضاعفا

كان هذا الصوت هو صوت الام فيتو ، وكانت جان تضع فى يدها كل يوم قطعةنقود صغيرة . وحينما رات العجوز الطبيب يسير هذه المرة بمفرده مع هيلين ، هزت راسها كما لو كانت تعرف بواطن الامور ، ولم تنطلق عقيرتها كعادتها بالدعاء ، وما لبثت أن أخذت تتبعهم بقدميها الثقيلتين .. وهى تتمتم بكلمات غامضة

وكانت هيلين وجولييت تعودان احيانا عن طريق شارع رينوار بدلا من العودة عن طريق شارع باسى ، وذلك كى تطيلا الطريق خمس دقائق أو ست حين يكون الطقس جميلا . وفى هذا المساء ، فضلت هيلين أن تعود مع هنرى عن طريق شارع رينوار حيث الظلام والسكون ، وحيث يمكنها أن تستمتع بجمال هذا الشارع الطويل الخالى من المارة ، الذى لا تضيئه الا مصابيح الغاز المتباعدة

وفى هذه الساعة ، كان سكان حى باسى قد أخلدوا جميعا للنوم ، وكانت هذه الوحدة تسبب سرورا عظيما لكل من هيلين وهنرى ، الذى لم يجرؤ على أن يقدم لها ذراعه حتى الان . وكانت جان تسير بينهما وسط هذا الشارع المغطى بالرمل .. وكانه ممر فى حديقة كبيرة

واخذ ثلاثتهم يسيرون بخطى بطيئة فى دفء هذه الليلة من ليالى الربيع التى يعطرها أريج النرجس ، وكانت جان ترفع وجهها الى السماء لتقول من حين لآخر « آه ! يا اماه .. انظرى ، ماأجملها من نجوم ! »

ومن خلفهم ، كان وقع خطوات الام فيتو يبدو وكانه صدى لوقع خطواتهم . لقد كانت العجوز تقترب منهم ، وكان فى وسعهم ان يسمعوها وهى تكرر طيلة الطريق هذه العبارة باللغة اللاتينية :

ــ اننا مع مريم .. المجد لله فى الاعالى

وقالت جان تسأل والدتها :

ــ ان معى قطعة صغيرة من النقود ، فماذا لو أعطيتها لها ؟

ولم تنتظر جان جوابا من والدتها ، وانمـــــا اسرعت تعدو الى العجوز التى كانت على وشك ان تدخل الى طريق «ممر المياه» . واخذت الأم فيتو قطعة النقود ، وهى تدعو للصبية بالخير معددة كل اسماء القديسيـن فى الجنة ، ولكنها امسكت فى نفس الوقت بالصبية الصغيرة من يدها ، وقالت تسألها :

ـ هل السيدة الاخرى مريضـة ؟

فاجابت جان تقول فى دهشـة :

ـ كلا ..

فقالت العجوز :

لتحفظها السماء ، ولتغمرها هى وزوجها بالرخـاء ! كلا ، لا تهربى يا آنستى الطيبة . دعينى اقول دعاء للســـيدة العذراء بخصـــوص والدتك وستجيبين معى : آمين . وبعــد ذلك تلحقين بوالدتك ، وهى لن تغضب منك

أثنا ذلك ، كان هنرى وهيلين يقفان معا وقد استولى عليهمـــا الاضطراب لوجودهما بمفردهما فجاة فى ظل صف من اشـــجار الكســـتناء الطويلة التى تحف بجانب الطريق . وقال هنرى فى بساطة :

ـ اغفرى لى ...

فقالت هيلين :

ـ نعم ، نعم .. اتوسل اليك أن تصمت

وأحست هيلين بيده تلمس يدها ، فتراجعت قليلا الى الخلف . ومن حسن حظها ان جان عادت فى هذه اللحظة وهى تصيح قائلة :

ـ اماه ! لقد جعلتنى اقول دعاء للســـيدة مريم العـــذراء لان هذا يجلب حســـن الحظ

ودخل ثلاثتهم الى شارع فينوس ، بينما اخذت الأم فيتو تنزل سلم ممر المياه ..

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى أوصل فيـه هنرى هيلين وابنتها ، فقد تكرر ذلك فى أحد أيام الآحاد ، حين تجاسر هنرى

وانتظر هيلين وجان .. وتمتع ثلاثتهم بعودة ثانية جميلة عن طريق شارع رينوار



وانقضى شهر السيدة العذراء فى جمال غريب ، فقد كانت هيلين سعيدة بالتجائها الى الكنيسة الصغيرة التى تحس بين جدرانها بالهدوء ، وبأنها تستطيع أن تشعر بالحب دون خجل . ولكن عواطفها الدفينة كانت لا تزال تجيش فى قرارة نفسها .. فكانت هيلين كلما استيقظت من هدوئها بسبب نشوتها الدينية .. تشعر بأنها مقيدة بعلاقات يمكن أن تنتزع لحمها اذا هى حاولت أن تقطعها . وكان هنرى من ناحيته يبدى نحوها ونحو نفسه احتراما كافيا ، ومع ذلك كانت تحس باللهيب يتصاعد من وجهه ، وتخشى أن يقدم على سلوك مندفع ينبع من رغبته الجنونية ، بل لقد كانت كذلك تخشى حتى من نفسها !

وذات يوم ، بينما كانت هيلين وجان عائدتين بعد الظهر عن طريق شارع الانونسياسيون ، قامتا بزيارة الكنيسة .. وكانت جان تشكو من تعب شديد . والواقع انه حتى آخر يوم من أيام الاحتفال بشهر السيدة العذراء ، لم ترد الصبية أن تعترف لوالدتها بأن الحفل الدينى الذى يقام بالكنيسة كل مساء كان يؤثر عليها تأثيرا بالغا لشدة ما كانت تجد فيه من لذة عميقة ، حتى انتهى الامر بأن صارت وجنتاها شاحبتين كالشمع

وفى هذا اليوم ، قالت هيلين لابنتها وهما فى الكنيسة :

ـ اجلسى هنا يا عزيزتى .. انك ستستريحين حالا ، ولن نبقى فى الكنيسة سوى عشر دقائق

وأجلست هيلين ابنتها بالقرب من أحد الاعمدة ، وجلست بدورها على بعد عدة مقاعد منها ..

وفى وسط الكنيسة ، كان هناك بعض العمال ينزعون الاقمشة من فوق الجدران ، وينقلون آنية الزهور الى الخارج ، فقد كانت آخر طقوس الشهر قد انتهت فى الليلة السابقة . وكانت هيلين تدفن وجهها بين راحتيها ، فلم تر أو تسمع شيئا مما يدور حولها ،

وكانت تسأل نفسها اذا كان من واجبها أن تعترف للقسيس جوف بالازمة الرهيبة التي تمر بها ، فربما أسدى اليها نصيحة .. أو رد الى نفسها الهدوء المفقود . ولكنها كانت في الوقت نفسه مسرورة بقلقها وآلامها ، بل انها كانت تخشى أن ينجح القسيس في شفائها !

وانقضت العشر دقائق ، وانقضت كذلك ساعة .. وهي لاتزال في مكانها هكذا مستغرقة في صراعها مع قلبها . وحينما رفعت رأسها اخيرا وعيناها مبللتان بالدموع ، رأت القسيس جوف واقفا الى جوارها ينظر اليها في حزن ، وكان القسيس هو الذي يشرف على العمال ، فلما رأى هيلين وجان تقدم نحوهما لمحادثتهما . قال القسيس جوف حين رأى هيلين تنهض من مكانها وتجفف دموعها :

— ماذا بك يا ابنتي ؟

ولم تجد هيلين ماتجيب به ، وخشيت أن تخر جاثية على قدميها مرة أخرى وتنفجر في البكاء . وازداد القسيس اقترابا منها ، وقال يحدثها في رفق :

— انني لا أريد أن استجوبك ، ولكن لماذا لا تلجئين الى كقسيس وليس كصديق ؟

وتمتمت هيلين تقول :

— فيما بعد .. فيما بعد .. اعدك بذلك

واثناء ذلك ، كانت جان تسلي نفسها بفحص زجاج الكنيسة الملون ، وأخذ جو الكنيسة الرطب يؤثر شيئا فشيئا في نفس هيلين، فأحست بالضيق من جراء هذا السكون الذي يضخم اقل ضجة حولها . وبدا لهيلين أنها على وشك أن تموت في هذا المكان المقدس ، ولكن الذي احزنها بصفة خاصة هو منظر العمال ، وهم يحملون الازهار بعيدا عن المذبح ، فبدا شكله عاريا .. ولم يكن هناك اثر لاى رائحة من بخور ، وكان منظر الرخام البارد يبعث القشعريرة الى النفس . وفي لحظة ما ، ترنح تمثال السيدة العذراء بثوبه المصنوع من الدانتيل ، وسقط بين اذرع عاملين ليحملانه بعيدا الى مكان آخر . وفي اللحظة ذاتها ، انبعثت من جان صيحة ضعيفة ، وتصلب جسم الصبية التي كانت تراقب العمال وهم يأخذون تمثال السيدة العذراء

واستطاعت والدتها ان تحملها فى احدى مربات « الحنطور » بمساعدة القبيى الذى استولى عليه القلق . وأدارت هيلين راسها نحو باب الكنيسة ومدت ذراعيها الى الامام ، وصاحت تكرر فى جنون بصوت تغيض نبراته باللوم والندم :

ــ انها هذه الكنيسة ! انها هذه الكنيسة !



الفصل الثانى عشر

حلاوة الحب

وفى المساء ، كانت جان تبدو احسن حالا . ولكى تدخل الصبية الطمانينة على قلب والدتهـا ، نهضت من فراشـها ومشت وهى تبذل مجهودا كبيرا الى غرفة الطعام .. حيث جلست على المائدة .. وقالت لامها وهى ترسم ابتسامة على شفتيها :

ـ كلى يا والدتى .. اننى اريد ان تاكلى .. لا تقلقى ، وكل مافى الامر اننى اشعر بتعب بسيط

وحينما رات الصبية والدتها تنظر اليها بوجه شاحب ، ولا تمد يدها الى الطعام ، انتهى بها الامر ان تظاهرت بانها سوف تاكل ، وطلبت بعضا من المربى . واسرعت هيلين تلبى رغبتها ، وقدمت اليها المربى ، ولكن الدموع سرعان ما طفرت من عينى الصبية وقالت :

ـ لا استطيع ان آكل يا اماه ، وهاانتذى ترين اننى لا استطيع ان ابلع الطعام ، ولا يجب أن تنهرينى على ذلك

كانت جان فعلا تشعر بتعب كبير يوشـك أن يحطمهـا . وكان يبدو لها أن ساقيها قد تجمدتا ، وان يدا حديدية تمسـك بهـا من كتفيها . ومع ذلك كانت تحاول أن تبدو عادية أمام أمها ، وتكتم الصيحات التى توشك أن تنطلق منها من جراء الآلام الحادة التى تشعر بها تمزق رقبتها

وحينما ابصرت هيلين ابنتها تنكمش هكذا تحت وطأة الالم ، القت بمنشفتها على الارض ، وسارعت لتاخذها بين ذراعيها .. وقالت بصوت تخنقه الدموع :

ـ ابنتى .. ماذا بك يا ابنتى ؟

وحاولت جان أن تصلب جسدها ، وقالت لوالدتها وهى تجاهد فى أن ترسم ابتسامة على شفتيها :

ـ لا تعذبى نفسك يا والدتى .. لن يكون هناك شىء .. والآن وقد انتهيت من تناول الطعام ، أرجو أن تذهبى بى الى السرير من جديد . لقد كنت أريد ان أراك على المائدة ..

وحملتها هيلين الى سريرها ، وكانت قد جاءت به الى غرفتها ووضعته بالقرب من فراشها . وحينما تمددت الصبية فيه وغطتها والدتها جيدا ، احست بانها أحسن حالا من ذى قبل .. ولم تعد تشكو الا من بعض الآلام الدفينة فى مؤخرة راسها

واستغرقت جان فى النوم ، وبقيت هيلين الى جوارها تنظر اليها . وفى هذا الوقت ، جاءت روزالى على أطراف أصابعها لتهمس فى اذن سيدتها .. عما اذا كانت تأذن لها فى ان تذهب للنوم ، فوافقتها هيلين بهزة من رأسها

ودقت الساعة الحادية عشرة ، وخيل لهيلين أنها سمعت طرقا خفيفا على الباب .. فاخذت المصباح وذهبت لترى من يكون الطارق وقد استولت عليها دهشة كبيرة . وقالت :

ـ من هناك ؟

فاجابها صوت مختنق النبرات :

ـ انا .. افتحى

وكان الطارق هنرى ديبرل .. وفتحت هيلين الباب على الفور وقد سرتها زيارته ، وجال بخاطرها انه لا شك قد علم بنبأ الأزمة فهرع اليها من تلقاء نفسه ليكون الى جوارها ، واحست بشىء من الخجل لانها تريد أن يشاركها القلق على صحة ابنتها . ولكن هنرى لم يترك لها الوقت كى تتكلم ، وانما تبعها الى غرفة الطعام وقد استولت عليه رعدة خفيفة

وتمتم الطبيب يقول وقد أمسك بيد هيلين :

ـ ارجو ان تغفرى لى .. اننى لم أشاهدك منذ ثلاثة ايام ، ولم أستطع أن أقاوم رغبتى فى رؤيتك

وسحبت هيلين يدها من يده ، فتقهقر قليلا الى الخلف ، واستمر يقول وقد ثبت بصره عليها :

ــ لا تخشي شيئا .. انني أحبك ، وكنت سابقى واقفا على بابك لو لم تفتحي لي .. انني أعرف جيدا ان هذا كله جنون ، ولكنني أحبك .. أحبك ..

كانت هيلين تنصت اليه وقد بدت عليها امارات القسوة والجد ، وظلت صامتة على الرغم من أن هذا كان يعذبها . وامام هــــذا الاستقبال الفاتر ، انهار الطبيب وقال بعاطفة متدفقة :

ــ لست أدرى لماذا تستمر في تمثيل هذه المهزلة العجيبة ؟ انني لم أعد اقوى على الاحتمال أكثر من ذلك ، واشعر بأن قلبي يوشك ان ينفجر .. انني سأرتكب عملا جنونيا أسوأ مما فعلت ليلة الحفل انني سوف آخذك بالقوة وأحملك معي ..

ومد الطبيب ذراعيه من فرط انفعاله ، واقترب منها واخــــذ يقبل ثوبها كالمحموم ، بينما ظلت هيلين واقفة في برود ، وأخيرا قالت تسأله :

ــ اذن ، فأنت لا تعرف شيئا ! ؟

وأمسك الطبيب بمعصمها العارى واخذ يغمره بالقبـــــلات ، وصدرت عن هيلين حركة تنم من فروغ صبرها .. قالت :

ــ دع هذا اذن ! انك ترى جيدا انني لا اسمع حتى ما تقول .. انني لا أفكر في مثل هذه الامور !

وبعد ان هدأت هيلين عادت تقول من جديد :

ــ اذن فأنت لا تعرف شيئا ؟ حسنا .. ان ابنتي مريضة ، وأريد ان تطمئنني على الفور .. انني مسرورة لانك أتيت

وأمسكت بالمصباح وسارت أمامه ، وحينما بلغت باب الغرفة ، التفتت وراءها وقالت له بلهجة حازمة :

ــ انني امنعك من أن تفعل ذلك مرة أخرى هنا ...

ودخل الطبيب من خلفها وهو لايزال يرتعد . وفي الغرفة ، في هذه الساعة من الليل ، ووسط الملابس الداخلية المبعثرة ، استنشق الدكتور ديبرل ــ من جديد ــ هذه الرائحة الذكية التي جعلتـــه

يضطرب فى الامسية الاولى التى رأى فيها هيلين مشعثة الشعر ، عارية الكتفين . انه الآن هنا مرة اخرى . آه لو يستطيع ان يركع على ركبتيه ويشرب كل رائحة الحب التي ترفرف فى الهواء منتظرا طلوع الفجر هكذا فى عبادة صامتة ! وأحس بأن صدغيه على وشك الانفجار ، فاتكأ بذراعه على سرير الطفلة الحديدى

وقالت له هيلين بصوت خافت :

ـ لقد نامت .. انظر اليها

ولكنه كان لا ينظر ولا يسمع شيئا ، فقد كانت عواطفه المتأججة لا تريد أن تهدأ . وحينما انحنت هيلين أمامه على فراش ابنتها ، استطاع ان يلمح قفاها الذهبى الذى تغطيه خصلات من الشعر الرقيق المموج ، فاغلق عينيه كى يقاوم رغبته فى أن يقبلها فى هذا المكان

وقالت هيلين :

ـ انظر .. انها ساخنة .. أليس هذا خطيرا ؟ قل لى بربك

وجس الطبيب نبض الصبية وهو غارق فى رغبته الجنونية التي كانت تتلاطم فى جبينه . انه فعل ذلك بطريقة آلية خضوعا منه للعادة المهنية ، ولكن الصراع كان قويا فى نفسه .. فظل واقفا فى مكانه لا يتحرك ، بل ولا حتى يبدو عليه أنه يحس بوجود يد الصغيرة المسكينة فى يده . وقالت هيلين فى لهفة :

ـ قل لى .. هل هى مصابة بحمى شديدة ؟

وأحس الطبيب حينئذ بأن يده قد أصبحت ساخنة بدورها . ومضت لحظة من الصمت .. وسرعان ما أخذت روح الطبيب تستيقظ فى نفسه . وحينما عد ضربات النبض ، انطفأت النار التى كانت تشع من عينيه ، وشحب وجهه شحوبا كبيرا

وانحنى الطبيب على الصبية وقد استولى عليه القلق ، ولمتم يقول بعد أن ظل ينظر اليها عدة لحظات :

ـ انها ساخنة كالنار !

وفى هذه اللحظة ، فتحت جان عينيها ، وقالت تسأل والدتها :

ــ من هنا يا أماه ؟

فقالت هيلين :

ــ هذا صديقك ، وانت تعرفينه

ونظرت الصبية الى الطبيب لحظة بعينين فاحصتين . وفجاة ، شاع فى وجهها تعبير ينم عن الحنان ، وقالت فى رقة :

ــ نعم ، نعم .. اننى أعرفه .. واحبه كثيرا

وصمتت جان لحظة ثم اضافت تقول بلهجة تنطوى على الدعابة :

ــ يجب عليك ان تشفيني يا سيدى .. واعاهدك انى ساشرب كل ماتصفه لى من دواء ... انني أعدك بذلك حتى تكون والدتى مسرورة

كان الطبيب يمسك باحدي يديها ووالدتها تمسك بالاخرى،بينما كانت الصبية تنقل بصرها بين الاثنين كما لو كانت تراهما لاول مرة فى حياتها . وفجاة ، اعترتها نوبة شديدة من الالم ، فاضطربت يداها الصغيرتان ، وامسكت بكل من والدتها والطبيب وتشبثت بهما ، ثم قالت :

ــ لا تتركانى .. اننى خائفة .. دافعا عنى ، وامنعا هؤلاء الناس من الاقتراب منى .. اننى لا اريد سواكما .. اننى اريدكما بجانبى

واخذت الصبية تجذبهما نحوها ، وتقربهما الواحد من الاخر بطريقة تشنجية

واستمرت تهذى .. وفى لحظات هدوئها ، كانت «جان» تستسلم لاغفاءة قصيرة تبدو فيها وكأنها ميتة تمــــاما ، ثم تهب فجاة من اغفاءتها وقد استولى عليها ذعر شديد ، وحينئذ كان يبدو عليها انها لم تعد ترى أو تسمع شيئا ، وتظل عيناها غائمتين ..

وقضى الدكتور ديبرل شطرا كبيرا من الليل الى جانب المريضة التى بلغت حالتها حدا بالغا من السوء ، ولم يعد الى منزله فى تلك الفترة الا مرة واحدة . وحينما رحل أخيرا مع مطلع الفجر ، رافقته هيلين حتى باب الغرفة . وحينئذ سألته قائلة فى قلق :

ــ اخبرنى عن حالتها .. الم تنته الازمة ؟

فأجاب الدكتور ديبرل يقول :

— لست أنكر ان حالتها بالغة الخطورة ، ولكنى أتوسل اليك الا تدعى الشك يخامرك فى شفائها . اعتمدى على ، وسوف اعـود فى الساعة العاشرة من هذا الصباح

وحين عادت هيلين الى غرفة المريضة ، وجدتها جالســـــة فى فراشها تفتش حولها فى ذهول . وصاحت الصغيرة تقول بمجرد ان وقع بصرها على والدتها :

— لماذا تركتنى .. اننى خائفة .. لا تتركينى وحدى ..

وقبلتها والدتها مواسية ، ولكن الصغيرة كانت لا تزال مستمرة فى بحثها وهى تقول :

— أين هو ؟ لماذا لم يبق .. اننى أريده الى جوارى ..

وتساقطت الدموع من عينى هيلين ، وقالت لابنتها تهدىء من روعها :

— انه سيعود حالا .. انه لن يتركنا ، واقسم لك على ذلك ، فهو يحبنا حبا عظيما .. كونى عاقلة وارقدى يا عزيزتى ، وسأظل أنا هنا فى انتظار عودته

وبدات بعد ذلك فترة مروعة .. ثلاثة أسابيع من القلق لم تنقطع فيها الحمى ساعة واحدة بأكملها . وكانت جان لا تشعر بشىء من الهدوء والاطمئنان الا حينما يكون الدكتور ديبرل الى جوارها يمسك بيدها .. بينما تمسك والدتها باليد الاخرى . والظاهران حساسيتها التى زادها المرض ارهافا قد نبهتها الى ان معجزة حبهما هى التى تستطيع أن تنقذها

وكانت تنظر اليهما ساعات طويلة وهما على جانبى فراشها وعيناها تشعان بتعبير جاد عميق . انها لم تكن تتكلم ، ولكنها كانت تقول كل شىء بضغطات صغيرة من يدها الساخنة ، وكانت تتوسل اليهما كثيرا كى لا يتركاها أو يبتعدا عنها ، وتحرص على أن تجعلهما يفهمان انها تشعر بالراحة لكونهما الى جوارها . وحينما كان الطبيب يأتى بعد فترة غياب ، كان ذلك بالنسبة للصغيرة كأنه السحر ، فتمتلىء عيناها — اللتان بقيتا طول غيابه مثبتتين على الباب فى انتظار عودته

– بتعبير ينم عن الاشراق والسرور ، وبعدئذ تستغرق في نوم هادىء ..



وكان الدكتور بودان قد جاء لعيادتها في اليوم التالي لحدوث الازمة ، ولكن جان تمردت عليه ، واشاحت بوجهها الى الناحية الاخرى ، ولم تدعه يفحصها

وحينما عاد الدكتور بودان في اليوم التالي ، وجدت هيلين نفسها مضطرة الى أن تحدثه عن كراهية الصبية له ، فلم يعد الطبيب العجوز بعدها الى الغرفة مرة أخرى ، واكتفى بأن أخذ يصعد الى هيلين كل يومين ليسألها عن حالة ابنتها . وكان أحيانا يسأل زميله الدكتور ديبرل عنها

ومن ناحية أخرى كان من العبث أن يحاول المرء خداع جان ، فقد كانت حواسها رقيقة الى حد بعيد ، وكان القسيس جوف والسيد رامبو يحضران كل مساءٍ ويقضيان ساعة في سكون تام .. وهما يغالبان التأثر

وذات مساء ، وكان الدكتور ديبرل على وشك الرحيل ، أشارت هيلين للسيد رامبو أن يأخذ مكان الطبيب ويمسك بيد الصبية الصغيرة . ولكن حدث أن فتحت جان عينيها ولم يكد يمضي على نومها ثلاث دقائق ، وجذبت يدها في سرعة مفاجئة ، ثم انخرطت في البكاء وهي تردد قائلة :

– انكم قساة ..

وحينئذ قال السيد رامبو والدموع تملأ عينيه :

– انك اذن لم تعودى تحبينني .. انك لم تعودى تريدينني .. أليس كذلك ؟

ولكن الصغيرة كانت تنظر اليه دون أن تجيب ، وحينئذعادالرجل الى ركنه في الغرفة .. وانزوى فيه وقلبه مملوء بالحزن . وانتهى به الامر ان أصبح يأتى لزيارة الصبية خلسة ، فيختبىء وراء ستارة ويظل ينظر اليها من مخبئه شطرا طويلا من الليل . وكان القسيس يأتي كذلك في صحبته ليجلس برأسه الضخم والدموع تنساب من

عينيه . أن الخطر المحدق بصديقته الصغيرة كان يقلب كيانه راساً على عقب

ولكن على الرغم من انزواء الرجلين فى أقصى الغرفة ، كانت جان تظل تشعر بوجودهما .. انهما كانا يسببان لها الضجر والضيق . وكانت والدتها تميل عليها لتسمع الكلمات التى تتمتم بها وهى تتقلب فى فراشها ، فتسمعها تقول فى اصرار :

ـ أماه ! اننى اتألم .. ان هذا كله يخنقنى .. اطردى هؤلاء الناس ..

وحينئذ كانت هيلين تشرح للأخوين فى رفق أن الصغيرة تريد أن تنام ، فكانا يفهمان ويرحلان . وبعد خروجهما كانت جان تلقى نظرة فى انحاء الغرفة ، ثم تنظر الى والدتها والدكتور ديبرل فى حنان بالغ وتقول :

ـ طاب مساؤكما .. اننى أشعر الآن بالراحة .. امكثا هنا



واستمر الحال هكذا لمدة ثلاثة أسابيع ، وكان هنرى يحضرمرتين كل يوم فى باديء الامر ، واخيرا أصبح يقضى معها الليل بطوله ،وكرس لها معظم ساعات فراغه

وفى البداية ، كان الطبيب يظن أن الصغيرة ستصاب بحمى تيفودية ، ولكن الاعراض التى بدت عليها سرعان ما خيبت ظنه . ولم يكن هناك من شك فى انه أمام أحد المضاعفات الخطيرة التى تنتج عن فقر الدم ، والتى يصعب الكشف عنها وتتسبب فى تعقيدات خطرة .. وخاصة فى مثل سن هذه الصبية الصغيرة . وخشى الطبيب أن ينجم من ذلك اصابة فى القلب او أن تظهر بداية تدرن رئوى ، ولا سيما أن حماس الصغيرة وعصبيتها كانا يسببان له القلق . وكانت هذه الحمى العنيدة الثقيلة الوطأة ترفض التقهقر أمام أقوى الادوية ، الامر الذى كان يزيد من قلقه وهواجسه . لقد كان يبذل كل علمه ونشاطه فى علاج هذه الحمى ، وهو يشعر انه بذلك يعالج سعادته وحياته هو نفسه . وكان الطبيب طوال هذه الاسابيع الثلاثة من القلق يعيش فى صمت كبير مملوء بالترقب والانتظار .

ان عواطفه التي خمدت لم تستيقظ قط من جديد ، ولم يعد يرتعد أمام أنفاس هيلين ، وحينما كانت نظراتهما تتقابل ، كانا يشعران بصداقة حزينة كشخصين تهددهما كارثة مشتركة

ومع ذلك ، كان قلباهما يذوبان في شعور من العطف والحنان مع كل دقيقة تمر ، ويزدادان قربا . وحينما كان يأتي بعد غياب ، كان في وسعه أن يعرف من مجرد النظر الى وجه هيلين كيف قضت المريضة الليلة السابقة ، ومن ناحية أخرى فان هيلين استطاعت أن تجعله يقسم لها على الا يخدعها .. وأن يصارحها دائما بمخاوفه

وكانت هيلين تقضي كل وقتها واقفة الى جوار سرير ابنتها ، ولم تنم في عشرين ليلة سوى مدة ساعات ، انها اظهرت من القوة والهدوء ما يفوق طاقة البشر ، وكانت تكبح جماح نفسها بلا أية دموع .. كي تحتفظ بسلامة تفكيرها في هذا الصراع المرير ضد مرض ابنتها .

وكان يبدو على هيلين أنها قد هوت في فراغ ضخم .. فقدت فيه كل وعي بما يدور حولها .. بل بوجودها هي نفسها . انها اذا كانت قد تمسكت بالحياة ، فذلك فقط من أجل هذه المخلوقة العزيزة التي تحتضر ، وايضا من أجل هذا الرجل الذي يعدها بأن معجزة يمكن أن تحدث . لقد كانت تراه هو وحده ، وتسمعه وحده ، وكانت أبسط كلماته تحتل في نفسها مكانة كبيرة ، وحينما كانت جان تمر بلحظات خطرة ، وكان هذا يحدث كل مساء تقريبا ، كانت تقف الى جواره في صمت واستسلام ، وهي تحلم بأن تتسلل الي نفسه كي تعطيه بعض قوتها . لقد كانا يريدان أن يشعرا بأنهما اثنان يكافحان ضد الموت ، وكانت أيديهما تتقابل على حافة السرير .. وهي ترتعد من فرط الخوف والحزن ، الى أن يخرج من فم الصبية تنفس ضعيف يدل على انتهاء الازمة وانها مازالت على قيد الحياة ، وحينئذ يطمئن كل منهما الآخر بهزة من رأسه . وفي هذه المرة ، كان حبهما يخرج منتصرا ، وكان تقاربهما واتحادهما يزدادان رسوخا

وذات مساء ، اعتقدت هيلين أن هنري يخفي عنها شيئا ، فقد ظل يفحص جان نحو عشر دقائق دون أن ينطق بكلمة واحدة ، وكانت الصغيرة تشكو من ظمأ لا يمكن احتماله ، وكان يخرج من حنجرتها

الجالة صفير مستمر واضح ، وبدا عليها انهـا تعـانى من اختناق شديد . وأخيراًاستولتعليها اغفاءة عميقة،واحمر وجهها احمرارا شديدا ، ولم تعد تستطيع أن ترفع جفنيها . ولم يكن هناك مايدل على أنها لاتزال على قيد الحياة سوى هذا الصفير المستمر . لقد كانت ترقد بلا حركة .. وكأنها ميتة تماما

وسـالت هيلين الطبيب :

ــ يبدو انها فى حالة سيئة للغاية .. اليس كذلك ؟

وأجابها الطبيب بالنفى ، وبأن تغييرا لم يطرأ على حالتها ، ولكنه كان يبدو شاحبا ومنهـارا تحت وطأةعجزه ..وعلى الرغممن ضغطه الشديد على نفسـه ، فقد تهالك على أحد المقاعد فى الناحية الاخرى من السرير . وحينئذ قالت هيلين :

ــ صارحنى بكل شىء .. لقد اقسمت على ان تقول لى كل شىء، هل هى النهاية ؟

ولم يجب الطبيب بشىء ، فقالت هيلين فى عنف :

ــ انك ترى اننى قوية بما فيه الكفاية .. ولم استسلم لليأس ؟ تكلم .. اننى أريد أن اعرف الحقيقة

وحدق فيها هنرى لحظة ، ثم قال فى بطء :

ــ حسنا .. انها اذا لم تخرج من اغفاءتها فى خلال ساعة على الاكثر فسوف تنتهى

ولم تبك هيلين ، وانما جثت على ركبتيهـــا ، ثم ضمت ابنتها بين ذراعيها وكأنها تريد ان تبقى على هذا الوضع الى الابد ، وأخيرا قربت وجهها من وجه ابنتها وأخذت تلتهمها بنظراتها ، وهى تريد أن تعطيها روحها وحياتها . ولكن انفاس الصبية اللاهثة كانت تزداد سرعة ..

وقالت هيلين وهى ترفع رأسها الى الطبيب :

ــ افعل أى شىء .. افعل أى شىء .. لا تتركها تموت .. !

فقال الدكتور ديبرل فى بساطة :

ــ سأفعل كل شىء من أجل انقاذها



ونهض الطبيب من مكانه ، وبدأت المعركة الهائلة مع المرض . وأخذت تعود الى نفسه كل رباطة جأشه كطبيب يمارس مهنته . انه حتى الآن ، لم يكن قد جرؤ على أن يستخدم مع الصبية وسائل العلاج العنيفة لانه كان يخشى ان يضعف جسدها الصغير . ولكنه الان لم يعد يتردد ، فأرسل روزالى الى منزله لتحضر اثنى عشرة دودة من ذلك النوع الذى يمتص الدم . ولم يخف الطبيب عن الام انه يبذل محاولة يائسة يمكن ان تنقذ ابنتها او تودى بحياتها

وحينما عادت روزالى بالدود خارت قوى الطبيب لحظة ، بينما اخذت الام تتمتم فى ذهول :

ــ يا الهى .. يا الهى .. ماذا لو قتلتها ؟

وعندما انتزع الطبيب من هيلين موافقتها ، قالت له والدمع ينهمر من عينيها :

ــ حسنا .. ضع الدود ، ولتسدد السماء خطاك

وكف كل منهما عن الكلام ، وانهمك الطبيب بكليته فى المحاولة الاخيرة ، فخلع ثياب جان .. وكان رقاص الساعة المعلقة على الحائط يحدث صوتا عنيدا لا يرحم . وكانت كل ثانية تمر تحمل معها شيئا من الامل . وبدت جان بجسمها العارى المتألم تحت ضوء المصباح الساقط عليها شاحبة كالشمع ، ووضع الطبيب الدود عليه ..

واخيرا ظهرت نقطة حمراء ، وبدأ الدود يثبت عليها ويمتص الدم نقطة تلو الاخرى . كانت حياة جان تتقرر ، وكانت دقائق رهيبة ذات انفعال مؤثر عميق ، وكان اى تنهد ضعيف يخرج من فم الصبية يجعل والدتها تعتقد انها تجود بآخر انفاسها . ومرت لحظة تصلب فيها جسد الصغيرة ، فظنت هيلين ان ابنتها فارقت الحياة ، وكادت تنقض على هذه الحشرات الشرهة التى تمتص دم ابنتها بغية انتزاعها والقائها على الارض ، ولكن قوة عليا كانت تمنعها من ذلك . فظلت فى مكانها صامتة بلا حراك

وصدرت عن الطفلة حركة صغيرة ، ثم رفعت جفنيها ببطء وعادت فاغلقتهما من جديد بحركة تنم عن مزيج من الدهشة والارهاق

الشديد . ومرت على وجهها رعدة خفيفة ، وبدت وكانها تتنفس فى ضعف ، ثم حركت شفتيها فمالت عليها والدتها فى قلق ورهبة ، وتمتمت الصبية تقول :

ـ أماه .. أماه !

وحينئذ اقترب هنرى من سرير المريضة ووقف الى جوار هيلين ثم قال :

ـ لقد انقذت

واستولى على هيلين سرور جنونى ، فركعت الى جوار السرير واخذت تنقل بصرها بين ابنتها والطبيب فى ذهول .. وكانها قد فقدت صوابها . وراحت تكرر قائلة :

ـ هل نجت من الموت ؟ .. أحقا ما تقول ؟

وفجاة ، نهضت هيلين والقت بنفسها فى عنف بين أحضان هنرى وهى تصيح قائلة :

ـ اننى احبك !

واخذت تقبله وتضمه اليها فى عنف بالغ .. ان اعترافها الذى تاخر زمنا طويلا قد أفلت منها أخيرا فى هذه الازمة التى صهرت قلبها . لقد كانت هيلين الام وهيلين العشيقة تمتزجان فى هذه اللحظة السعيدة ، وكانت تمنحه كل حبها الذى يشعله اعترافها بجميله ..

قالت هيلين فى صوت متقطع :

ـ اننى ابكى .. هانتذا ترى اننى أستطيع ان ابكى .. يا الهى ! كم أحبك ، وكم سنكون سعداء معا !

كانت هيلين تتحدث معه فى غير كلفة وهى تبكى .. ان دموعها التى اجدبت منذ ثلاثة اسابيع كانت تسيل على خديها . وظلت السيدة الشابة بين ذراعى الطبيب وهى تداعبه فى بساطة وكانها طفلة صغيرة ، ثم هوت على ركبتيها وضمت جان مرة أخرى الى صدرها

كانت ليلة سعيدة ، وبقى الطبيب حتى ساعة متاخرة من الليل ، وكانت جان ممددة فى سريرها وراسها الرقيق الاسمر فى وسط الوسادة . وكانت عيناها مغلقتين دون أن تنام ، ولكنها كانت محطمة

تماما رغم زوال الخطر

وكان المصباح الموضوع على المنضدة بالقرب من المدفأة لا يضيء من الغرفة سوى مساحة صغيرة تاركا هنري وهيلين يجلسان في الظلال ، وفي مكانهما المعتاد على حافة السرير الضيق

وكان أحساسهما بوجود جان لا يباعد بينهما ، بل على العكس كان يقرب بينهما ويضفي براءة على أول ليلة في حبهما . وكانا يتذوقان الهدوء لاول مرة في هذه الايام الطويلة المشحونة بالقلق . انهما الآن موجودان معا جنبا الى جنب ، وهما يفهمان جيدا أن كلا منهما يحب الآخر . واحيانا كانت هيلين تنهض من مكانها وتذهب على أطراف أصابعها لاحضار جرعة من دواء أو لاعطاء أمر لروزالي ، او لتضبط نور المصباح . وحينما كانت تجلس في مكانها من جديد كانت تتبادل الابتسام مع الطبيب . وكان كل منهما لاينطق بكلمة واحدة ، وانما كانا يهتمان بجان وحدها وكان الصبية هي حبهما نفسه . وكان يحدث أحيانا وهما يشدان الغطاء على الصبية او يرفعان رأسها على الوسادة ، ان تتقابل أيديهما فيتركانها هكذا متلامسة لحظة قصيرة ، وكانت هذه هي المداعبة الوحيدة التي يسمحان بها لنفسيهما ، وكانت تتم خلسة وبطريقة لا ارادية

ومن حين لآخر كانت جان تتمتم قائلة :

ـ إنني أعرف جيدا أنكما الى جواري ، فانا لست نائمة ..

وحينئذ كانا يفرحان بسماع صوتها ، وكانت ايديهما تنفصل وهما لا يحسان بأية رغبات أخرى ، فقد كانت الصبية تثير في نفسيهما شعورا عميقا بالامتنان والهدوء

وحينما كانت جان تتقلب في فراشها ، كانت هيلين تسألها قائلة :

ـ هل انت مرتاحة يا عزيزتي ؟

وكانت جان لا تجيب على الفور ، وانما ترد بعد لحظة وكأنها في حلم لتقول :

ـ نعم ، نعم .. انني لم اعد اشعر بنفسي ، ولكنني اسمعكما..

وهذا يسرني كثيرا

وفى اليوم التالى ، حينما حضر القسيس والسيد رامبو ، أفلتت من هيلين حركة تنم من نفاد الصبر . لقد كانا يزعجانها وهى قابعة هكذا فى ركن سعادتها . ولما استفسرا منها من صحة جان وهما يرتعدان خوفا من سماع اخبار سيئة ، كانت هيلين من القسوة بحيث أخبرتهما بان الطفلة ليست أحسن حالا . والواقع انها اجابت بهذا دون وعى أو تفكير ، وانما كانت مدفوعة برغبة أنانية فى ان تحتفظ لنفسها ولهنرى — فقط — بالسرور فى انقاذ الطفلة ، فلماذا اذن يريد هذان الرجلان ان يقتسما معها سعادتها ، ان هذه السعادة ملك لها ولهنرى وحدهما ، وهى ستنقص اذا عرف بها اى شخص آخر ، ومن ثم فقد خيل لها انهما شخصان غريبان يريدان أن يتدخلا فى حبها

واقترب القسيس جوف من فراش الصغيرة وهو يقول :

— جان .. اننا أصدقاؤك الطيبون .. الا تعرفيننا ؟

وصدرت عن الصبية حركة خشنة ، فقد كانت لاتريد أن تتكلم على الرغم من أنها تعرفت عليهما ، واكتفت بأن ألقت على والدتها نظرة شاردة لها مدلولها

وأخيرا خرج الرجلان وقد استولى عليهما الحزن لإعتقادهما أن جان فى حال أسوأ من الليالى الاخرى

وبعد مرور ثلاثة أيام ، أذن هنرى للمريضة بأن تأكل بيضة نصف ناضجة . واثارت الصبية مشكلة كبرى ، فقد أصرت على أن تتناول البيضة وهى بمفردها فى الغرفة مع والدتها والطبيب، وكان السيد رامبو حينئذ موجودا فى الغرفة . وتمتمت جان تقول فى اذن أمها وهى تضع لها المنشفة على صدرها :

— انتظرى حتى يرحل هذا الرجل

وبعد أن خرج السيد رامبو قالت الصبية فى سرور :

— هيا يا والدتى .. بسرعة .. اننى أفضل أن آكل البيضة حينما لا يكون هذا الرجل هنا

واجلست هيلين ابنتها في السرير ، ووضع هنري وسادتين خلف ظهرها ليسندها ، وقالت امها تسالها :

ـ هل تريدين أن أقشرها لك ؟

فقالت جان :

ـ وهو كذلك يا اماه

وقال الدكتور ديبرل :

ـ أما أنا فساقطع لك ثلاث شرائح صغيرة من الخبز

فقالت جان :

ـ كلا .. اربعة ! سوف ترى انني استطيع أن آكل اربع شرائح

لقد كانت تخاطب الطبيب دون كلفة ، وحينما ناولها أول شريحة من الخبز ، أمسكت بيده وظلت محتفظة بها في يدها لحظة ، وكانت يدها الأخرى لا تزال تمسك بيد والدتها ، ثم اخذت تقبل كلا من يد والدتها والطبيب بنفس الحرارة والمحبة . وقالت هيلين اخيرا وقد رأت ابنتها على وشك أن تنفجر في البكاء :

ـ هيا .. تناولي البيضة لتدخلي علينا السرور

وعندئذ شرعت جان تأكل البيضة .. ولكنها كانت من الضعف بحيث أحست بالتعب بعد اللقمة الثانية . ومع هذا كانت تبتسم مع كل لقمة تأكلها وتقول أنها تحس بأسنانها ضعيفة للغاية

وظل هنري يشجعها ، بينما وقفت هيلين تنظر اليها وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، فقد كانت ترى ابنتها تأكل أول بيضة بعد مرضها ، وأثار هذا المنظر كل عواطفها وحنانها . وفجأة طرأت على ذهن هيلين فكرة مفاجئة ، فقد تخيلت ابنتها ميتة ومتصلبة تحت ملاءة السرير ، وبعثت هذه الفكرة برودة شديدة في أوصالها

وقالت الصغيرة :

ـ انك لن تغضبي مني يا اماه ، فانا أفعل كل ما في وسعي .. إنني الآن اتناول لقمتي الرابعة ، فهل انت مسرورة ؟

فقالت هيلين :

ـ نعم .. انني مسرورة جدا يا عزيزتي .. انك لا تتصورين مقدار ما تسببينه لي من سرور !

ونسيت هيلين نفسها فى غمرة سعادتها الجارفة ، فاسندت راسها على كتف هنرى ، واخذا ينظران للصبية ويبتسمان لها ..

وفجاة ، أخذ الالم يعود الى جان رويدا رويدا ، وظلت تنظر اليهما خلسة وقد طاطات راسها . وبعد لحظة واحدة ، كفت عن الأكل وقد شحب وجهها شحوبا شديدا ، ثم نظرت اليهما نظرة هائلةتنطق بالغضب والريبة ، فاضطرا الى أن يمدداها فى السرير من جديد

انتهى الجزء الاول

روايات الهلال تقدم

صفحة حب

بقلم

اميل زولا

الجزء الثانى

رئيس التحرير : طاهر الطناحى


مجلة
الابتسامة

كتاب الهلال يقــــدم

ضــوء القمر

و

قصص أخرى

بقلم

أحمد حسن الزيات

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

تصدر ٥ مارس ـ الثمن ١٠ قروش

اشترك فى روايات الهلال

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية من)

وكلاء روايات الهلال

لبنـــــان :	مكتب مؤسســة دار الهلال شارع ابراهيم الحـــوراني ــ محطــة الداموق صندوق البريد ٢١٩٦ بيروت
العـــــراق	السيد محمـود حلمى ــ المكتبة المصرية ــ بغداد
اللاذقــــية	السيد نخلة سكاف
جـــدة	السيد هاشــم بن على نحاس ــ ص . ب ٤٩٢
البحـــرين	السيد مؤيد احمد المؤيد صندوق البريد رقم ٢١٠
البـــرازيل	Dr Michel H. Thomé, Tateo Do Colegio No. 3 S. Andar, Sala 9, Sao Paolo, Brasil
غانا	Mr. Husscin Abi Hassan, P. O. Box 2561, ACCRA, GHANA
سـيراليون	Messrs. Allie Mustapha & Sons P. O. Box 410 Freetown, Sierra Leone
سنغـــافورة	Ahmed Bin Mohammad Bin Samit Almaktab Alitijari Assharqi. P. O. Box 2205 SINGAPORE
انجـــلترا :	The Arabic Publications Distribution Bureau, 7, Bishopsthorpe Road, London S.E. 26, ENGLAND
نيجيريـــا	Mr. Mohamed Said Mansour Atlas Library Company, 126, Nnamdi Azikiwe St. Lagos, Nigeria



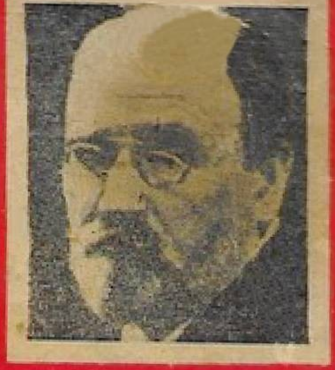
الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكر الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر يناير 2020 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي



هذه الرواية

تعد رواية صفحة حب «Une page d'Amour» ... من أعظم الروايات التى كتبها أديب فرنسى ... القرن التاسع عشر اميل زولا «Emile Zola» النقاد على انها من انفس ما كتبه هذا الا وانها تعد درة لامعة فى تاريخ الادب الفرنسى وقت صدورها حتى الآن ..

وقارىء هذه الرواية سيعجب بالدقة البالغة التى يصور بها زولا شخصياته بمقدرة فائقة وبالتسلسل الطبيعى الذى تنتظم أحداث غاية فى البساطة لتلعب فى النهاية دوراً حاسماً فى مصير هذه الشخصيات .. كما ستذهله الموهبة الخارقة التى يحلل بها « زولا » قضايا غاية فى البساطة ، نراها كل يوم باعيننا .. ولكنه يجملها بفنه وبراعته تتكشف أمامنا فى وضوح ينتزع الاعجاب والتقدير

انها قصة حب ، حافل بالرغبات .. تنتهى نهاية غريبة سيلمسها القارىء ، وستترك فى نفسه أثرا كبيرا ولقد حرصنا على ان نقدمها لقرائنا فى ترجمتها الكاملة الامينة حتى يستطيع القارىء أن يستمتع بها ولذلك فاننا نقدم للقراء الجزء الاول من هذه الرواية الشائقة وسنقدم لهم الجزء الثانى فى منتصف الشهر القادم ان شاء الله

المؤلف

* يعد « زولا » أمام المدرسة الطبيعية فى الآداب ، وامام المدافعين عن العدالة

* يعتبر زولا من أشهر الروائيين الفرنسيين فى القرن التاسع عشر

* تمتاز قصصه بدقة التحليل ، وحبكة الموضوع ، ووصف البيئة الاجتماعية

* من درره القصصية العالمية قصة « نانا » التى ترجمناها فى روايات الهلال باسم « غانية باريس » عام ١٩٥٥ وقصة « تريزا » التى ترجمناها عام ١٩٦١



Exclusive

For

www.ibtesama.com